المصفى من صفات الدعاة

عبد الحميد البلالي

(٧)
دار الدعوة
الكويت

دار الوفاء
مصر

الحب في

... من

صفات الدعاة

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الرابعة

١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م

دار الدعوة للنشر والتوزيع ـ الكويت

ص . ب : ٦٦٥٢٠ بيان ـ ت : ٢٦١٥٠٤٥

الرمز البريدى 43756

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة . ش . م . م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ / ٣٥٦٢٣٠ - ٣٥٦٢٣٠ /

المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣ ص . ب ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

مقدمة

الحمد لله رب العالمين الذي خلق الإنسان من نطفة أمشاج ولم يكن شيئاً مذكوراً، ونفخ فيه الروح فتحرك الجسد الذي كان كتلة من لحم ساكنة، فمنهم من استمر في الحركة بعد خروجه من بطن أمه، ومنهم من سكن، فكان أقرب إلى أهل القبور منه إلى الأحياء، ومن المتحركين من تحرك في سبيل مرضاة خالقه، ومنهم من تحرك في سبيل هواه وشهوته وفي سبيل غضب الله تعالى، وشتان بين المتحركين، والكل راجع إليه يوم القيامة ليحاسبه عن نوعية تحركه وكده وتعبه في هذه الدنيا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾، والصلاة والسلام على سيد المتحركين، الذي لم يهدأ، ولم يقر له قرار منذ أن أمر بالتبليغ حتى غادر هذه الدنيا، وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه بالتحرك لنصر هذا الدين دون وهن لما يصيبه في سبيل الله ولا ضعف ولا استكانة حتى آخر نفس له في هذه الحياة.

أما بعد...

فإن الإيمان مجرداً عن العمل لا ينجي من النار، ولا يكون كاملاً، ولم تذكر آية من آيات القرآن الإيمان إلا وقرنته بالعمل، لذلك عرف علماء السلف رضي الله عنهم الإيمان بأنه: «نطق باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان».

فبعد الإيمان بهذا الطريق، لابد من العمل الدؤوب لتحقيق ما أراده الله منا على هذه الأرض، والعمل الدؤوب إذا لم يصاحبه ثقة بالنصر يكون مهزوزاً، ومؤدياً لليأس في منتصف الطريق. فلابد أن يصاحب العمل ثقة

بالنصر، لتكون الوقود المؤجج للحركة الدائبة التي لا تنقطع حتى النصر، أو الشهادة في سبيل من أمرنا بالتحرك لنصرة دينه.

الفصل الأول

الحركة الدائبة

النملة ذلك المخلوق الصغير الذي سمى الله سبحانه وتعالى سورة كاملة باسمه (سورة النمل) إذ يقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾[1] فبين سبحانه أن للنمل قيادة حريصة، ذات رعاية عميقة لأتباعها، وأن لها جنودا يطيعون، في تنظيم دقيق. وجاء في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس (نهى عن قتل أربع من الدواب، النملة والنحلة والهدهد والصرد)[2] وذلك أن (النملة أثنت على سليمان وأخبرت بأحسن ما تقدر عليه بأنهم لا يشعرون إن حطموكم ولا يفعلون ذلك عن عمد منهم، فنفت عنهم الجور، ولذلك نهى عن قتلها)[3] وعندما نلتفت إلى معنى اسمها فإنها (سميت النملة نملة لتنملها، وهو كثرة حركتها وقلة قرارها)[4] فلا تراها إلا وهي تمشي ليلا ونهارا، صيفا و شتاء، ربيعا وخريفا، وإن وقفت في الطريق، فإنها لتشاور أختا لها على مواصلة الطريق، أو انها وقعت على صيد جديد.

فأجدر بمعشر الدعاة أن تكون لهم حركة خير من حركتها، لا يقفون في منتصف الطريق، ولا يبردون إذا هبت عليهم رياح اليأس، أو تشل حركتهم إذا اجتاحتهم أعاصير الفتن، فالحركة في قاموس الدعوة هي الحياة، والسكون هو الموت، أو كما قال الإمام الجيلاني: (الحركة بداية والسكون نهاية)[5] بداية بكل ما تحمل البداية من القوة والاندفاع، والسكون نهاية في

---

(١) النمل ١٨.
(٢) أخرجه أحمد وأبو داود وصححه الألباني (ص.ج.ص ٦٨٤٥).
(٣) القرطبي ٤٨٨٨/٧.
(٤) القرطبي ٤٨٨٥/٧.
(٥) الفتح الرباني ص ٢٤٠.

كل شيء، نهايته كإنسان وإن كان يتنفس.

وها نحن نرى الماء الذي مدحه الله سبحانه وتعالى وعظم أمره إذ قال في كتابه الكريم ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾(٦) وذلك بأن جعله الأساس في كل شيء حي يتحرك، ولكنه إذا فقد الحركة منع من الاغتسال فيه، فقد روى البخاري في صحيحه عن رسول الله ﷺ (لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه)(٧). فهي حركة دائمة لا تعرف التوقف إلا للاستعداد لانطلاق جديد، ولا تعرف الملل أو الضجر حتى تصل إلى أرض الجنة إن شاء الله.

---

(٦) الأنبياء ٣٠.
(٧) البخاري (الفتح ٢٣٩) كتاب الطهارة.

أصل الحركات وأنواعها

أولاً: التحرك الخاطئ

ثانياً: التحرك السليم

أصل الحركات وأنواعها

يقول الإمام ابن القيم (كل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة)[٨] حب الشيء هو الميل إليه لاعتقاده أنه يتميز عن باقي ما يماثله، هذا الميل متعلق بالقلب، وهو وحده لا يسبب التحرك إلا إذا لازمه الأصل الثاني للحركات وهي (الإرادة) والتي تعتبر الدافع لترجمة الأصل الأول، فإذا تم ذلك تحركت الجوارح في خدمة ذلك المحبوب وهذا يدعونا أن ننمي هذين الأصلين في من نريد أن نربيه على الحركة وذلك لأن نسبة التحرك تساوي نسبة الموجود من هذين الأصلين.

أنواع الحركات:

فاذا تحقق الأصلان ظهر التحرك إما في اتجاه الخير أو في اتجاه الشر، وانطلاقا من تلك الحقيقة، تنقسم أنواع الحركات إلى قسمين، التحرك السليم والتحرك الخاطيء.

(٨) الجواب الكافي ص ١٤٣ ـ دار الكتب العلمية.

أولاً: التحرك الخاطئ

* يسارعون في الإثم
* حركة المنافقين
* الصبر على عبادة الطاغوت
* الاختيال المرح
* الهماز المشاء

وهو كل تحرك يغضب الله سبحانه وتعالى ويزيد من حجم الباطل. . ولقد ذكر القرآن الكريم بعض أنواع هذا التحرك وصفات المتحركين له، ومن هذه الصفات:

١- يسارعون في الإثم:

والمسارعة أو المبادرة هي من أجل الصفات التي يسعى الدعاة لاحتواء من توجد فيه، وهي من الصفات النادرة بين معاشر الدعاة وتكون لها أخطر العواقب إذا وجدت في أصحاب الباطل.

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ﴾ (٩).

يقول سيد قطب رحمه الله (والمسارعة مفاعلة، تصور القوم كأنما يتسابقون تسابقا في الإثم والعدوان، وأكل الحرام وهي صورة ترسم للتبشيع والتشنيع، ولكنها تصور حالة من حالات النفوس والجماعات حين يستشري فيها الفساد، وتسقط القيم، ويسيطر الشر.

وإن الإنسان لينظر إلى المجتمعات التي انتهت إلى مثل هذه الحال، فيرى كأنما كل من فيها يتسابقون إلى الشر، إلى الاثم والعدوان، قويهم وضعيفهم سواء)(١٠).

ولخطورة هذه الصفة، يترتب عليها كثير من المفاسد ولعل ذلك يحزن أصحاب التحرك السليم، أو يسبب لهم اليأس والخوف من الباطل وانتفاشه،

(٩) المائدة ٦٢.
(١٠) الظلال ٢/٩٢٨ الشروق.

فلذلك يطمئن الله سبحانه وتعالى أصحاب الحق ويقول لهم: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾(١١).

٢ـ حركة المنافقين:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۝ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١٢). فهي حركة كما يمثلها القرآن لا تثبت على حال، دائما في تردد وحيرة،ويزيد في تلك الحيرة ما يعيشه المنافق من ازدواج في الشخصية والظهور في صورتين، باطنية وظاهرية.

يقول صاحب الظلال (إن هذه الحركة في المشهد لترسم ـ عن طريق التأثر الإيحائي ـ حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التي يعيش فيها أولئك المنافقون بين لقائهم للمؤمنين وعودتهم للشياطين، بين ما يقولونه لحظة ثم ينكصون عنه فجأة، بين ما يطلبونه من هدى ونور وما يفيئون إليه من ضلال وظلام)(١٣).

وكذلك يصف سبحانه وتعالى صفة تحركهم للعبادة بالكسل إذ يقول سبحانه وتعالى ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ﴾(١٤) يقول الإمام القرطبي

---

(١١) آل عمران ١٧٦.
(١٢) البقرة ١٩، ٢٠.
(١٣) الظلال ١/٤٦.
(١٤) النساء ١٤٢.

(أي يصلون مراءاة وهم متكاسلون متثاقلون لا يرجون ثوابا ولا يعتقدون على تركها عقابا)[١٥].

٣ـ الصبر على عبادة الطاغوت:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾[١٦].

يقول الإمام القرطبي: (الملأ: الاشراف، والانطلاق: الذهاب بسرعة، أي انطلق هؤلاء الكافرون من عند رسول الله ﷺ يقول بعضهم لبعض (أن امشوا) أي امضوا على ما كنتم عليه ولا تدخلوا في دينه (واصبروا على آلهتكم)[١٧].

وهي نفس الصفة الأولى، الإسراع والانطلاق في معصية الله سبحانه وتعالى ولكن هنا لازمت هذه الصفة صفة أخرى وهي الصبر على هذا الإسراع والمعاهدة على الاستمرار فيه، وهذه بحد ذاتها تعتبر صفة مستقلة للتحرك الخاطيء، أو تحرك أهل الباطل.

وينظر سيد رحمه الله إلى هذه الصفة من منظور آخر إذ يقول: (إن طريقة الكفار في مجابهة هذا الدين هي الطريقة المألوفة المكرورة التي يصرف بها الطغاة جماهيرهم عن الاهتمام بالشؤون العامة والبحث وراء الحقيقة، وتدبر ما يواجههم من حقائق خطيرة. ذلك أن اشتغال الجماهير بمعرفة الحقائق بأنفسهم خطر على الطغاة، وخطر على الكبراء وكشف للأباطيل التي يغرقون

---

(١٥) تفسير القرطبي ١٩٩٢/٣.

(١٥) أـ ذكرت بعض الكتب المنافقين بشكل مفصل مثل كتاب المنافقون وكتاب ـ صفات المنافقين ـ لابن القيم.

(١٦) ص ٦.

(١٧) تفسير القرطبي ٥٥٩٥/٨.

فيها الجماهير، وهم لا يعيشون إلا بإغراق الجماهير في الأباطيل)[18].

وهو استدلال بديع وفق الله سبحانه وتعالى سيدا لاستخراجه من ظلال الآية الكريمة.

٤ـ الاختيال المرح:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾[19].

وهي الصفة التي ينهى لقمان ابنه عنها ويربيه على تركها، لأنها في الاتجاه الخاطيء.

وهي كما قال الحافظ ابن كثير.(أي متبخترا متمايلا مشى الجبارين)[20] ثم يوضح له لقمان أنه بهذه المشية لن يقطع الأرض ولن يبلغ الجبال طولا، وهو تصوير عجيب يصوره الله سبحانه وتعالى لأصحاب التحرك الخاطيء المتكبرين المتبخترين في مشيتهم وكأنهم يشعرون أنهم أعلى من الجبال، أو قادرون على اختراق الأرض.

٥ـ الهماز المشاء:

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴾[21] يقول الإمام القرطبي (أي يمشي بين الناس ليفسد بينهم. يقال نم ينم ونميما ونميمة أي يمشي ويسعى بالفساد)[22].

---

(١٨) الظلال ٥/٣٠٠٩.
(١٩) الاسراء ٣٧.
(٢٠) تفسير ابن كثير ٣/٤٠ ـ المكتبة التجارية.
(٢١) القلم ١١.
(٢٢) تفسير القرطبي ١٠/٦٧١١.

وهذا أيضا جهد يقدمه صاحب هذه الصفة،ولكن في سبيل تفكيك الروابط الاجتماعية، وذلك ناتج من مرض الحسد والحقد الذي فيه والذي سببه كثرة المعاصي، ونلاحظ أن هذا الإنسان يكون دائما قلقا بسبب عدم ارتياحه لراحة الآخرين.

ثانيًا : التحرك السليم

الصفة الأولى	معرفة الطريق
الصفة الثانية	الهمة العالية
الصفة الثالثة	المسارعة فى الخيرات
الصفة الرابعة	سعى الرجال لطلب العلم
الصفة الخامسة	سعى الرجال للاستجابة
الصفة السادسة	الاهتمام بما يحدث للدعوة والدعاة
الصفة السابعة	تكون همهم الدعوة
الصفة الثامنة	لا يعرفون الراحة
الصفة التاسعة	يكرهون السكون والعجز
الصفة العاشرة	خفيف النوم
الصفة الحادية عشر	الاستمرارية فى الحركة

هو كل تحرك في اتجاه الخير الذي أمر به الله سبحانه وتعالى في كتابه أو جاء به الرسول ﷺ في سنته وأجل أنواع هذا التحرك هو:

الحركة الدائبة:

تقدم في بداية البحث تعريف الحركة الدائبة، ولا بد لكل حركة من أتباع ورواد، ولابد لهؤلاء الرواد من صفات أهلتهم لهذه التسمية، وأولى هذه الصفات:

معرفة الطريق(*)

ولمعرفة الطريق وكيفية التحرك فيه، ومتى يكون سليما يتم به الفوز بجنة المأوى ومصاحبة الملأ الأعلى، ومجاورة الله سبحانه وتعالى، لابد من معرفة أربعة أمور فتح الله على الشيخ أبي القاسم الراغب الأصفهاني بمعرفتها، فسارع بإعلانها لنا في كتابه (الذريعة) قبل أن ينساها وكان أولها: (معرفة المعبود المشار إليه بقوله ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾(٢٣).

والثاني: معرفة الطريق المشار إليه بقوله ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾(٢٤)

والثالث: تحصيل الزاد المتبلغ به المشار اليه بقوله ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾(٢٥)

والرابع: المجاهدة في الوصول كما قال تعالى ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾(٢٦) (٢٧).

فالسالك لهذا الطريق، المتصف بصفة الحركة الدائبة، لابد له ابتداء أن يعرف حق المعرفة لمن يتحرك هذا التحرك، وما هي صفاته وأسماؤه فيضعه بعد أن يعرفه هدفا له يتحرك من أجله ومن أجل الوصول اليه، فمتى ما اتضح الهدف. سهل التحرك وزادت الحركة.

(*) سيأتي في الفصل الثاني تفصيل لمعرفة طبيعة الطريق.

(٢٣) سورة الذاريات ٥٠.

(٢٤) سورة يوسف ١٠٨.

(٢٥) سورة البقرة ١٩٧.

(٢٦) سورة الحج ٧٨.

(٢٧) الذريعة ٢٦٩، ٢٧٠ ـ بتصرف.

ثم لابد له من معرفة طبيعة هذا الدين الذي يسلكه، فهو طريق ليس مفروشا بالزهور إنما هو كما أخبر عنه الصادق المصدوق ﴿حفت الجنة بالمكاره﴾(٢٨) فلا يتوقع السالك فيه أبوابا مفتوحة دائما، دون تعب ولا مجاهدة ولا فتنة في المال والأهل والولد والنفس، فمن اجتاز هذه المكاره، استحق الوصول إلى الجنة، ومن تعب واستكان، ولم يستطع مجاهدة المكاره، فلا يحتج على خالق الجنة بعدم الحصول عليها، فهذه طبيعة الطريق.

كما لابد من زاد يستطيع بواسطته مواصلة هذا الطريق الشاق، وإذا كان الزاد في لغة العامة المقصود به (الطعام) الذي يعين على مواصلة طرق الدنيا، فإن الزاد عند سالكي طريق الجنة هو (التقوى) تقوى الله في السر والعلانية، واستشعار مراقبته المستمرة، والخوف من عذابه ووعيده.

ومعرفة الله سبحانه وتعالى، ومعرفة الطريق، والتزود بالزاد لا يكفي للوصول إلى رضا الله سبحانه وتعالى والنظر إليه، والحصول على سلعته الغالية، دون جد وجهاد، وتحرك مستمر، ومجاهدة النفس بما تكره، وإلزامها بما يحب الله ورسوله ﷺ، بهذا يسهل الله للسالك سبيله، الوصول إليه ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾(٢٩)ومتى اتضح السبيل وسهل سلوكها تم الوصول، ولا بد.

وأكثر المنحرفين من الجادة قد نقص عنده في تحركه أحد هذه الأربعة التي ذكرها صاحب الذريعة.

---

(٢٨) مسلم (٢٨٢٢) كتاب الجنة.

(٢٩) سورة العنكبوت ٦٩.

(أ) تعريف :

والهمة هي الطاقة الكامنة في الإنسان التي تحركه لفعل الأشياء سواء كانت في مجال الخير، أو في مجال الشر، فعلى ذلك تكون الهمة العالية هي ذاتها تلك الطاقة الكامنة في الإنسان والتي تحركه لفعل عظائم الأمور التي يعجز عنها من يماثلونه في العمر والظروف، اما عجزا كاملا أو يأخذون في إتمامها الوقت الطويل مع ما يصاحبهم من الملل والضجر، ويكون ذلك في أمور الخير، أما إن كانت في اتجاه أمور الشر، سميت همة سافلة. أما صاحب الهمة الضعيفة فهو ذلك المسلم الذي يتباطأ أو لا يجد دافعا لعمل الخير.

لهذا السبب كان ابن الجوزي يتعجب من الذين يقدرون على إتمام الأعمال التي تكسبهم الأجر الكبير ثم لا يتمونها إما كسلا أو من دنو همتهم فيقول: (من علامة كمال العقل علو الهمة! والراضي بالدون دنيء!!).

ولم أر في عيوب الناس عيباً ... كنقص القادرين على التمام[٣٠]

أو هي كما عرفها الراغب الأصفهاني، صاحب كتاب (الذريعة):

(والكبير الهمة على الإطلاق هو من لا يرضى بالهمم الحيوانية قدر وسعه فلا يصير عارية ببطنه وفرجه بل يجتهد أن يتخصص بمكارم الشريعة فيصير من أولياء الله وخلفائه في الدنيا ومن مجاوريه في الآخرة)[٣١].

---

(٣٠) صيد الخاطر ص ١٥ ـ المكتبة العلمية.

(٣١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ١٩٠ ـ ط الباز.

(ب) ميزان تقويم الرجال:

نقول للمطرق الذي نزغ الشيطان في قلبه عندما رأى الأمر من أمور الدعوة يوسد لغيره، وهو الأقدم في الدعوة، وجعله يستغرق في التفكير في أسباب ذلك التفضيل، وهم بترك الجماعة.

نقول له: (إنما تفاوت القوم بالهمم لا بالصور)[٣٢]

فليس ميزاننا في تقويم الرجال، القدم والنسب والعلم المجرد والمال، والتي أطلق عليها الإمام ابن القيم (الصور).

فلا ينفع الضبط دون عدالة، وحتى تكون (حقيقة لا صورة) لابد من تكامل (العدالة) بازدياد الهمة والتسابق لعمل الخير مع (الضبط) بازدياد طلب العلم وحفظه والعمل به والصبر عليه وتعليمه للآخرين بدقة دون زيادة محدثة أو نقصان مخل، فبعدها ينجح في ميزان الرجال ويكون (عدلا ضابطا) توسد له عظائم الأمور في الدعوة ليحملها بهمته العالية وإخلاصه لله تعالى للهدف التي وضعت من أجله.

فلا يغضب اذن ذلك المطرق ولا يلومن إلا نفسه، فنزول همته، هو الذي جعله في ذلك المكان، وليستمع لصاحب الفوائد إذ يقول **(نزول همة الكساح دلاه في جب العذرة)**[٣٣] فعندما نزلت همة الكناس، وكسل عن تعلم حرفة أو علم ينتفع به ويكرمه بين الناس، لم يكن أمامه إلا كنس الأوساخ، حتى انه ينزل إلى الجب لتنظيفه من الغائط حفظا لماء وجهه من السؤال إن ظل بدون ذلك العمل، فعندما نزلت همته، نزل وضعه بين الناس.

---

(٣٢) الفوائد ٦٥ ـ النفائس.

(٣٣) الفوائد ٦٥ ـ النفائس.

(جـ) المطالب العالية:

إن استشعار المؤمن أن الجنة محفوفة بالمكاره يتطلب منه طاقة عالية متمثلة بهمة عالية تتناسب مع ذلك المطلب العالي للتغلب على تلك المكاره التي حفت بذلك المطلب العالي، ويتمم تلك الهمة العالية والحركة النابضة التي لا تهدأ، تنقيتها من كل شائبة تدفع تلك الحركة لوجه غير وجه الله، وبالتالي يرشح بإذن الله للحصول على المطالب العالية، هذا ما جزم به الإمام ابن القيم بقوله (المطلب الأعلى موقوف حصوله على همة عالية ونية صحيحة فمن فقدهما تعذر عليه الوصول إليه، فإن الهمة إذا كانت عالية تعلقت به وحده دون غيره، وإذا كانت النية صحيحة سلك العبد الطريق الموصلة إليه، فالنية تفرد له الطريق والهمة تفرد له المطلوب، فإذا توحد مطلوبه والطريق الموصلة إليه كان الوصول غايته واذا كانت همته سافلة، تعلقت بالسفليات ولم تتعلق بالمطلب الأعلى)[٣٤].

لذلك كانت الهمة العالية هي من أوائل صفات أصحاب الحركة الدائبة في التحرك السليم، وأول ما يميز صاحب الهمة العالية، السرعة في فعل الخيرات.

(٣٤) الفوائد ١٨٩ ـ النفائس.

(أ) تعريف:

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٣٥) يقول الإمام القرطبي (يسارعون في الخيرات التي يعملونها مبادرين غير متثاقلين)(٣٦)

لا يسمى الداعية، صاحب همة حتى توجد فيه هذه الصفة.

(ب) شبهة وردها:

ولعل مثبطا في صفوف الدعوة، يثبط أصحاب هذه الصفة، أو الجدد المنتمين لهذه الدعوة، ليبرر فقدان هذه الصفة فيه، فيردد قول الرسول ﷺ **(التأني من الله والعجلة من الشيطان)**(٣٧) فعلى أصحاب صفة المسارعة ألا ينخدعوا بشبهة ذلك المثبط، وأن يكون لديهم الوضوح في الفرق بين العجلة في أمور الدنيا والعجلة في أمور الآخرة، فالتأني مطلوب في أمور الدنيا، بينما لا يطلب في أمور الآخرة، ويصدق ذلك قول الرسول ﷺ **(التؤدة في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة)**(٣٨).

(جـ) تنافس الصحابة:

والتنافس في أمور الخير صورة من الصور العملية لصفة (المسارعة في الخيرات) وهي صفة أصيلة في الصحابة رضوان الله عليهم، فقد كانوا

---

(٣٥) سورة آل عمران ١١٤.

(٣٦) تفسير القرطبي ١٤١٨/٨.

(٣٧) رواه البيهقي ـ وحسنه الألباني ـ ص ج ص (٣٠٠٨).

(٣٨) أخرجه أبو داود والحاكم وصححه الألباني (ص ج ص ٢٠٠٦).

يتنافسون فيما بينهم في أمور الآخرة (وكان عمر بن الخطاب يسابق أبا بكر رضي الله عنهما فلم يظفر بسبقه ابدا فلما علم أنه قد استولى على الإمامة قال: والله لا أسابقك إلى شيء أبدا، وقال: (والله ما سابقته إلى خير إلا وجدته قد سبقني اليه)(٣٩).

ولئن كان من الصعب اكتشاف بعض الصفات في المدعوين، فإن هذه الصفة تكاد تكون من أسهل الصفات التي يتم اكتشافها، نظرا لتميز صاحب هذه الصفة على الآخرين، فنجده أول الناس تطبيقا لما يؤمر به، وأول الناس حضوراً لأمور الخير وأول الناس عملا بالنصيحة، وأحيانا يكون الواحد من هؤلاء بعشرة إذا لم يكن بألف.

---

(٣٩) الروح ٢٥١ ط ـ د. ك. العلمية.

(أ) تعريف :

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾[٤٠] يقول الإمام الشوكاني (أي وصل إليك حال كونه مسرعا في المجيء اليك طالبا منك أن ترشده إلى الخير وتعظه بمواعظ الله)[٤١].

(ب) الحماسة المجردة من العلم:

ودائما تكون للحماسة المجردة من العلم أسوأ العواقب للدعوة والدعاة، لذلك كان العلم من أهم الأمور التي يتحلى بها صاحب الحركة الدائبة، والا كانت حركته قليلة النفع إذا لم تكن عديمة النفع.

(جـ) صور من أصحاب هذه الصفة:

فلذلك دأب أصحاب هذه الصفة على التسابق لتعلم العلم والسعي إليه، وأنفقوا ما يملكونه لتعلم العلم، عندما أدركوا أهميته لتبليغ الدعوة، بل إن ابن القاسم يقول عن الإمام مالك (أفضى بمالك طلب العلم إلى أن نقض سقف بيته فباع خشبه)[٤٢].

وكان الإمام البخاري يفكر بالعلم حتى في نومه قال الحافظ ابن كثير (وقد كان البخاري يستيقظ في الليلة الواحدة من نومه فيوقد السراج ويكتب

(٤٠) سورة عبس ٨، ٩.
(٤١) تفسير فتح القدير ٥/٢٨٣.
(٤٢) ترتيب المدارك ١/١٣٠.

الفائدة تمر بخاطره ثم يطفىء سراجه.ثم يقوم مرة أخرى وأخرى حتى يتعدد منه ذلك قريبا من عشرين مرة)[٤٣].

وبالرغم مما أصاب الإمام ابن الجوزي رحمه الله من الشدائد في بداية تعلمه للعلم، إلا أنه كان يعتبره أحلى من العسل، إذ يقول (ولقد كنت في حلاوة طلبي للعلم، ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل، لأجل ما أطلب وأرجو، كنت في زمن الصبا آخذ معي أرغفة يابسة، فأخرج في طلب الحديث وأقعد على نهر عيسى - في بغداد - فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء، فكلما أكلت لقمة شربت عليها وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم)[٤٤].

وأكثر من ذلك فإن أصحاب هذه الصفة كانوا يرحلون من بلد إلى بلد، على ما كان في تلك الأيام من مشقة السفر من أجل حديث واحد، ثم يرجعون، بل ان بعضهم رحل من أجل أقل من حديث واحد. حكى الحافظ ابن عبدالبر (ان مسروقا رحل في حرف وأن أبا سعيد - أي الحسن البصري - رحل في حرف أيضا)[٤٥].

من أجل كلمة واحدة يتحملون كل تلك المشقة لاستيقانهم ما للعلم من أهمية في تبليغ الدعوة، فلا يمكن أن يكون من أصحاب الحركة الدائبة ذلك الروحاني الكسول في طلب العلم.

(د) طلب العلم أفضل:

لذلك كان الإمام الشافعي يقول (طلب العلم أفضل من صلاة النافلة)[٤٦].

---

(٤٣) البداية والنهاية ١٥/١١.
(٤٤) صيد الخاطر ص ٢٧ - طنطاوي.
(٤٥) جامع بيان العلم ٩٤٨.
(٤٦) مناقب الشافعي.

ولا نعني بذلك إهمال النافلة، ولكن نقول: حتى هذه النوافل ما لم تؤد بعلم، لا يكون مردودها كما لو أديت بعلم.

وكذلك فإن العالم يستطيع عمل كثير من النوافل التي يجهلها ذلك الكسول الذي لا يعلم من أمرها شيئا.

وأصحاب الحركة الدائبة حتى في طلبهم للعلم هم في حركة وسعي لا يفترون ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾﴾.

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾(٤٧).

لا يهم من يكون هذا الرجل، ولا تلك المدينة، ولكن الأهم تلك الصفـة المقتـطفة من ثنايا الآية الكريمة، وهي (سرعة الأستجابة) لدعوة الرسل، فما ان استجاب لهذه الدعوة حتى جند نفسه جنديا لهذه الدعوة، دون أن ينتظر دافعا خارجيا وإنما جاء يجري ليدعو الناس لهذه الدعوة التي آمن بها. . .

يقول سيد قطب رحمه الله (إنها استجابة الفطرة السليمة لدعوة الحق المستقيمة، فيها الصدق والبساطة والحرارة واستقامة الإدراك وتلبية الإيقاع القوي للحق المبين) فهذا رجل سمع الدعوة فاستجاب لها بعدما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه في مقالته لقومه، وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره فلم يطق عليها سكوتا، ولم يقبع في داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور، ولكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره وتحرك في شعوره.

سعى به إلى قومه وهم يكذبون ويجحدون ويتوعدون ويهددون، وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين، وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان، ولم يكن في عزة* من قومه أو

(٤٧) سورة يس ٢٠.

* جاءت في الأصل (عزوه).

منعة من عشيرته، ولكنها العقيدة الحية في ضميره تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها(٤٨).

*** سبب هذه الاستجابة:**

هذه الاستجابة السريعة من ذلك الرجل إنما نبعت من معرفة حية لهذه الدعوة، وليست معرفة ميتة، ولكي تتم هذه الاستجابة السريعة، لابد من معرفة هذه الدعوة، معرفة فيها حياة، والحياة تعني الحركة، وليست معرفة جامدة ميتة، والتي كان الإمام البصري يرى أن الشاة أعقل من صاحب تلك المعرفة، والذي لا يتفاعل مع الكلمات بسبب تلك المعرفة الخالية من الروح، اذ يقول: **(لا تكن شاة الراعي أعقل منك، تزجرها الصيحة، وتطردها الاشارة)**(٤٩).

وهذه المعرفة هي التي أشار إليها الأستاذ محمد قطب في كتابه القيم (منهج التربية الإسلامية) بقوله (ان المعرفة الذهنية ليست هي المعرفة التي يريدها أو يعترف بها الإسلام فانها معرفة سطحية وميتة، لا تفعل شيئا في واقع الحياة ولا تؤثر شيئا في سلوك الإنسان وإذن فوجودها كعدم وجودها سواء.

المعرفة النظرية الذهنية الباردة الميتة إذن شيء، والمعرفة الحية التي تنبع من الوجدان، فتنفعل بها النفس كلها وتعطي تأثيرا معينا في السلوك الواقعي شيء آخر، هي ما يطلبه الإسلام بالذات ويستنبته في قلوب الناس ليصبحوا مسلمين(٥٠).

*** صور من استجابة الصحابة:**

وما كان الصحابة رضوان الله عليهم يعرفون شيئا سوى هذه المعرفة الحية التي تنبع من الوجدان فتنفعل فيها النفس كلها وتعطي تأثيراً معيناً في

(٤٨) الظلال ٥/٢٩٦٢ ـ الشروق.
(٤٩) الحسن البصري ص ٤٧.
(٥٠) منهج التربية الاسلامية ٢/٢٧، ٢٨.

السلوك الواقعي، فهذا سعد بن معاذ سيد الأوس يستمع إلى مصعب بن عمير وسعد بن زرارة وهما يعرضان عليه الإسلام فقال حالما انتهيا من كلامهما (كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي ركعتين، فقام واغتسل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق. ثم ركع ركعتين ثم أخذ حربته فأقبل عائدا إلى نادي قومه ومعه أسيد بن الحضير، فلما رآه قومه مقبلا قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم فلما وقف عليهم قال: **يا بني عبدالأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فما أمسى في دار بني عبدالأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة**[٥١]

ويرجع مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى مكة ليخبر الرسول ﷺ بأخبار انتشار الإسلام في المدينة، ثم تكون البيعة الكبرى وتتلوها الهجرة، ثم تبدأ مرحلة الجهاد، والتي يبرز فيها كثير من النماذج التي وقف التاريخ يصغى لما يقولون ويصور ما يفعلون، وها نحن أمام نموذج من هذه النماذج التي فهمت الإسلام ذلك الفهم الحي العملي، الصحابي الجليل (عمير بن الحمام الأنصاري) يسمع رسول الله ﷺ يقول أثناء معركة بدر (قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض) فيقول عمير: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: نعم، قال: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ (ما يحملك على قولك بخ بخ؟ قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها، قال: (فإنك من أهلها) فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهم ثم قال:

---

(٥١) البداية والنهاية ١٥٣/٣.

لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بها كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل(٥٢).

ونموذج آخر يتعجب حتى الصحابة من سرعة استجابته، ونوعية هذه الاستجابة، مما جعل البعض منهم يحفظ اسمه ويذكره في كثير من مجالسه بعد جيل الصحابة رضوان الله عليهم، ليتأسوا فيه، فهذا أبو هريرة رضي الله عنه كان يقول: (حدثوني عن رجل دخل الجنة لم يصل قط، فإذا لم يعرفه النـاس سألوه من هو فيقول أصيرم بني عبدالأشهل عمرو بن ثابت بن وقش)(٥٣) وقصة هذه الاستجابة أن الأصيرم (كان يأبى الإسلام على قومه، فلما كان يوم أحد بدا له فأسلم ثم أخذ سيفه فغدا حتى دخل في عرض الناس، فقاتل حتى أثخنته الجراح، فبينما رجال من عبدالأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة، إذا هم به فقالوا والله إن هذا للأصيرم ما جاء به لقد تركناه وانه لمنكر لهذا الحديث فسألوه فقالوا: ما جاء بك يا عمرو؟ أحدب على قومك أم رغبة في الإسلام، فقال، بل رغبة في الاسلام آمنت بالله وبرسوله وأسلمت ثم أخذت سيفي وغدوت مع رسول الله ﷺ فقاتلت حتى أصابني ما أصابني، فلم يلبث أن مات في أيديهم فذكروا لرسول الله ﷺ فقال: إنه من أهل الجنة)(٥٤).

فلا جزاء لمثل هذه السرعة التي لم يدرك صاحبها بعد إعلان إسلامه وتلبية داع الجهاد، صلاة واحدة، إلا الجنة.

إنها النماذج التي يعجز التاريخ عن وصفها، وإنها المرجع لدعاة هذا العصر لكي يراجعوا دقة هذه الصفة فيهم، بعد أن يسألوا أنفسهم عن مدى سرعة الاستجابة، عندما تطلب الدعوة منهم فعل شيء في دائرة المعروف تكرهه أنفسهم، أو التزام أمر يخالف رأيهم الشخصي؟..

---

(٥٢) مسلم (المختصر ١١٥٧).

(٥٣) (٥٤) البداية والنهاية ٣٧/٤.

(أ) رجل يكتم إيمانه:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾[٥٥] يقول الشيخ السعدي: (أي ركضا على قدميه، من نصحه لموسى وخوفه أن يوقعوا به)[٥٦].

فهو لم يكتف بالتأثر عند سماعه علية القوم يخططون لمقتل موسى عليه السلام، إنما دفعه الاهتمام بمصير الدعوة عند مقتل الدعاة أن يتحرك بأقصى ما يستطيع ليفعل شيئا أي شيء لإفشال هذا المخطط، ولترجمة ذلك الاهتمام إلى واقع ملموس.

(ب) مثال من الصحابة:

فهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يبلغ ذروة الاهتمام بما يحدث للدعوة والدعاة عند بداية إسلامه.

فقد تعرض في بداية الأمر لبعض المضايقات من سفهاء قريش مما اضطر خاله أن يجيره، فلم يتعرض له أحد، وفي تلك الأثناء كان يتحسر بسبب رؤيته للمسلمين وهم يتعرضون للتعذيب، وهو بمأمن من ذلك، فنراه يقول (وكنت لا أشاء أن أرى أحدا من المسلمين يضرب إلا رأيته وأنا لا أضرب، فقلت: ما هذا بشيء حتى يصيبني مثل ما يصيب المسلمين؟ فأمهلت حتى إذا جلس الناس في الحج وصلت إلى خالي: فقلت: اسمع؟ فقال:

---

(٥٥) سورة القصص ٢٠.

(٥٦) تفسير كلام المنان ٦/٢٠.

ما أسمع؟ قلت:جوارك عليك رد فقال: لا تفعل يابن أختي، قلت:بل هو ذاك، فقال: ما شئت! فما زلت أَضرب وأُضرب حتى أعز الله الإسلام)(٥٧).

ان اهتمامه بما يحدث للدعوة والدعاة، وصل إلى درجة انه يعاتب نفسه ألا يحدث له ما يحدث لإخوانه من الدعاة ولم تطب بنفسه حتى لاقى ما لاقى من التعذيب، عندها أحس أنه ينتمي إلى هذا الاسلام، وأنه عضو من أعضاء ذلك الجسد الطاهر الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

(جـ) كيف ربى الرسول ﷺ صحابته:

ولأن ذلك أصل من أصول الدعوة، كان الرسول ﷺ يربي صحابته عليه ويخوفهم من فقدان رحمة الله، إذ لم توجد بهم تلك الخصلة فيقول (من لا يرحم الناس لا يرحمه الله)(٥٨) وينفرهم من عدم الاحساس بالآخرين، وإن ذلك من علامات الشقاء فيقول (لا تنزع الرحمة إلا من شقي)(٥٩).

وإذا كان الله قد غفر لبغي من بغايا بني اسرائيل كما جاء في رواية البخاري (بينما كلب يطيف بركية قد كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني اسرائيل، فنزعت موقها، فاستقت له به. فسقته إياه، فغفر لها به)(٦٠) بسبب رحمتها لذلك الكلب غفر الله لها وهي بغى فكيف بمن يهتم لما يحدث للإنسان؟ وكيف بمن يهتم لما يحدث للمسلم؟ وكيف بمن يهتم لما يحدث للداعية إلى الله؟.

إنه لابد من الإحساس والاهتمام لما يحدث للدعوة والدعاة لإثبات سلامة ذلك العضو في ذلك الجسد، فإذا لم يوجد ذلك الاهتمام، فليعلم ان ذلك العضو قد فسد، وربما قد مات.

(٥٧) أسد الغابة ١٤٩/٤.
(٥٨) البخاري ٣٠٣/١٣ (التوحيد).
(٥٩) الترمذي (١٩٢٤) ـ البر ـ وحسنه الأرناؤوط، (جامع الأصول ٢٦١٧).
(٦٠) البخاري ٣١/٥ ـ المزارعة.

فبعد هذا الاهتمام لكل ما يحدث للدعوة والدعاة، ومع ازدياد هذا الاهتمام، تتضاءل باقي الاهتمامات في نفسه حتى يستولي عليه هم واحد، ألا وهو هم الدعوة، فتكون صفة ملازمة له، فلا يتكلم إلا بالدعوة، ولا يغضب إلا للدعوة، ولا يفرح إلا للدعوة، ولا يخاف إلا على الدعوة، ولا يبكي إلا على الدعوة، فإن فتر أحد الذين يربيهم، يفكر فيه في نومه وفي يقظته في عمله وفي منزله يدعو له في كل سجود أن يرجعه الله إلى الحق كما كان، يكلمه الناس وهو مذهول منهم، يفكر في ذلك التابع، لماذا فتر؟ هل السبب يكمن فيه، وصادر منه، أم هو من التابع نفسه؟ أم أنها فتنة الدنيا وجوانبها، ويظل في هذا الهم، حتى يرجع ذلك الفاتر إلى الجادة أو ينقلب على عقبيه.

ولعل هذا الهم، هو الذي كان يصيب الرسول ﷺ عندما كان يدعو الناس فلا يستجيبون، فكان الله سبحانه وتعالى يخفف عنه هذا الهم بقوله سبحانه في سورة الكهف آية ٦ ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ ﴾.

ولقد حاول من قبل الامام الجيلاني تقريب هذه الصفة لأحد أتباعه عندما كان يسرد عليه بعض صفات الدعاة بقوله له (هم قيام في مقام الدعوة، يدعون الخلق إلى معرفة الحق عز وجل، لا يزالون يدعون القلوب، يقولون ياأيتها القلوب، ياأيتها الأرواح، يا إنس ويا جن، هلموا إلى باب الملك، اسعوا إليه بأقدام قلوبكم، بأقدام تقواكم وتوحيدكم، ومعرفتكم وورعكم السامي، والزهد في الدنيا والآخرة، وفيما سوى المولى هذا شغل

القوم، همهم إصلاح الخلق، هممهم تعم السماء والأرض من العرش إلى الثرى)[61].

أو هي كما وصفها الإمام البنا في معرض وصفه للمجاهد بقوله (أستطيع أن أتصور المجاهد شخصا قد أعد عدته وأخذ أهبته وملك عليه الفكر فيما هو فيه نواحي نفسه وجوانب قلبه، فهو دائم التفكير، عظيم الاهتمام، على قدم الاستعداد أبداً إن دعي أجاب أو نودي لبى، غدوه ورواحه، وحديثه وكلامه، وجده ولعبه، لا يتعدى الميدان الذي أعد نفسه له، ولا يتناول سوى المهمة التي وقف عليها حياته وارادته، يجاهد في سبيلها، تقرأ في قسمات وجهه، وترى في بريق عينيه، وتسمع من فلتات لسانه ما يدلك على ما يضطرم في قلبه من جوى لاصق وألم دفين وما تفيض به نفسه من عزيمة صادقة، وهمة عالية، وغاية بعيدة)[62].

فحركاته وسكناته جميعها تدلك ما في قلبه من تكون هم الدعوة.

---

(٦١) الفتح الرباني ص ١٣/١٤.
(٦٢) حسن البنا ـ مواقف.

والمتصف بهذه الصفات التي ذكرها البنا رحمه الله لا يستريح ولا يعرف للراحة طعماً، فهذا شاعر الدعوة الإسلامية المعاصرة، عمر بهاء الدين الأميري، وهو في جناح طب القلب موصول الصدر إلى جهاز المراقبة الألكتروني بأسلاك تفل من حركته، يحقن في البطن كل يوم مرات بإبر لإماعة الدم، وقد جاء الطبيب، يسأل القائم على التمريض عن استراحة شاعرنا، فيرد عليه باستغراب، وبفهم يختلف عن فهمه فيقول:

كلا رويدك يا طبيب ... وقد سألت أما استراح؟

هل يستريح الحر يوقر ... صدره العبء الرزاح؟[٦٣]

نعم فالذي يمتليء صدره بما يحدث للدعوة والدعاة كل يوم على أيدي الإمعات، تابعي معسكر الشرق والغرب، والذي يمتليء صدره بالحزن على انحراف المنحرفين عن الجادة من قومه، والذي يمتليء صدره بالحسرة على تلهي الدعاة بتجريح بعضهم للبعض، وتفكك رباطهم، ويرى تقدم العدو واستهزاءه بكل القيم، واحتقاره لهذا الدين العظيم وأهله. دون أن يرى من يتحرك، كيف يستريح؟ ولئن استراح جسده فلا تستريح نفسه:

فمن استراح بعد كل ذلك، ولم يتحرك لإجلاء هذا الغثاء وهدمه بمبادئه وبما يؤمن به، لابد أن هواه قد قيده فاستحق أن يخرجه شاعرنا من دائرة الأحرار.

---

(٦٣) شعراء الدعوة الإسلامية ٢/٣٧.

عندما تسلم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة (صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إني داع فأمنوا ـ فجاء في دعائه ـ اللهم إني ضعيف عند العمل بطاعتك فارزقني النشاط فيها والقوة عليها بالنية الحسنة التي لا تكون إلا بعزتك وتوفيقك)[٦٤].

أين نشاط عمر رضي الله عنه من نشاطنا؟! ولكنه الحرص على بلوغ الكمال في العبادة، كما هو البغض لجميع أنواع الضعف التي تؤدي إلى نقص العبادة، فيكون من أكبر الأشياء التي تشغل أمير المؤمنين، فيجمع الناس ليؤمنوا على دعائه بزيادة النشاط وهكذا كان جيل الصحابة رضوان الله عليهم.

ثم يأتي تلاميذ الصحابة مقتدين بشيوخهم ببغض السكون والكسل، حتى يقول مفتي مكة، عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه **(لأن أرى في بيتي شيطانا خير من أن أرى فيه وسادة، لأنها تدعو إلى النوم)**[٦٥].

وبعد أربعين سنة بالتقريب برزت المدارس الفقهية وما تميزت به من الحركة الدائمة وبغض للسكون، حتى أن أحد أقطاب هذه المدارس وهو الإمام الشافعي يمثل السكون كالماء عندما يتوقف عن الجريان فيفسد، ويجزم بأن الأسد قد تتعرض للهلاك لو لم تتحرك باحثة عن فريستها وكذلك السهام لولا تحركها من الكنانة إلى القسى ومن القسى إلى الهدف ما أصابت، ثم يبالغ الإمام الشافعي في بغض السكون وحب الحركة بتمثيله لحالة الناس من

---

(٦٤) العقد الفريد ٤/٦٥.
(٦٥) البداية والنهاية ٩/٣٠٨.

الملل المؤكد لو أن الشمس بقيت دائمة في مكان واحد لا تتحرك فيقول:

إني رأيت وقوف الماء يفسده إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب
والأسد لولا فراق الأرض ما افترست والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة لملها الناس من عجم ومن عرب(٦٦)

ومن أقطاب المدارس الفقهية إلى أقطاب الحركة الإسلامية في العصر الحديث، لنرى الداعية الكبير مصطفى السباعي (رحمه الله) يتألم تألماً شديداً بسبب إعاقة المرض لتحركه للحق، ويعد أنه سيمشي إلى الغايات مشية المكافح فيقول:

فإن تكن الأيام أودت بصحتي وعاقت خطى عزمي بكل مسدد
فما كنت خوارا ولا كنت يائسا ولست بثاو في فراشي ومقعدي
سأمشي إلى الغايات مشي مكافح ألوذ بعز الله في كل معتد(٦٧)

هكذا يتصل جيل الصحابة بجيلنا الحاضر في صفة مشتركة تؤكد وحدانية المصدر.

---

(٦٦) ديوان الشافعي ص ٢٦، ٢٧ ط - الجيل.
(٦٧) شعراء الدعوة الإسلامية ٢/ ٤٤.

يقول الله سبحانه وتعالى مخبراً عن نفسه ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾(٦٨).

فلا يليق بجلاله سبحانه وتعالى سنة ولا نوم، أما العبد فتأخذه السنة ويأخذه النوم الخفيف والعميق، ويقابل هذه السنة وهذا النوم الذي لابد منه للإنسان، سنة ونوم من نوع آخر وهو الغفلة عن الطريق والهدف الذي خلق الإنسان من أجله ألا وهو (عبادة الله) وعلى مقدار ما يغفل الإنسان عن هذا الطريق، وعلى مقدار ما يصيبه من سنة أو نوم خفيف أو عميق، وهذا ما يؤكده الإمام ابن القيم عندما قال:

(لابد من سنة الغفلة ورقاد الهوى، ولكن كن خفيف النوم فحراس البلد يصيحون دنا الصباح)(٦٩).

فهنا يبين ابن القيم حتمية النسيان على ابن آدم والغفلة الآنية، ولكن صاحب صفة الحركة الدائبة الذي عاهد الله على المضي في هذا الطريق لا تعيقه أشواكه أو عوائقه، لا ينبغي أن تكون غفلته طويلة أو رقاده عميقا، فمن تذكر أن الموت آت، وهو أقرب مما هو يتوقع، وأيقن أن الصباح قد دنا لابد له أن يستيقظ من الهوى الذي مال له قلبه، قبل أن يتحول إلى نوم عميق فلا يستطيع الاستيقاظ إلا بعد طلوع شمس يوم القيامة.

---

(٦٨) سورة البقرة ٢٥٥.
(٦٩) الفوائد ٥٥ ـ النفائس.

وهي محصلة الصفات التي سبقتها، فما الإسراع في طلب الخير، والاهتمام بما يحدث للدعوة والدعاة، وسرعة الاستجابة، والسعي لطلب العلم، والهمة العالية، وتكون هم الدعوة، وخفة النوم، ومعرفة الطريق، وبغض السكون، إلا عوامل مساعدة للاستمرارية في الحركة، وتكاد تكون هذه الصفة هي السمة الرئيسية لرواد الحركة الدائبة، فليس مهما لديهم كمية العمل الذي يؤدونه بمقدار الاستمرارية في أدائه، وهذه الصفة هي من أحب الأعمال لله سبحانه وتعالى، يقول الرسول ﷺ **(أحب الأعمال إلى الله ما دووم عليه وإن قل)**[٧٠].

يقول الشيخ المناوي: (أدومها) أي (أكثرها ثوابا أكثرها تتابعا ومواظبة)[٧١] فهي مواظبة على النوافل دون انقطاع وهي متابعة للعمل في الدعوة، مع الجديد المتحمس، ومع القديم الكسول، ومع الرواحل خوفا عليهم من الزلل أو الاجتهاد.

هكذا استمرار دائم في الحركة دون ملل أو كسل، الناظر إليه من علو يراه كالنملة لا تقف أمام العوارض التي في الطريق ولا تحتقر نفسها أمام ضخامة تلك العوارض فإنها تحاول جرها، فإن لم تستطع أخبرت جماعتها فتساعد الجميع لإزالة ذلك العارض.

---

(٧٠) مسلم (٧٨٢).
(٧١) فيض القدير ١/١٦٥.

عوائق التحرك السليم

١ - حب الدنيا

٢ - استطالة الطريق

٣ - السكون والخمول

٤ - الجهل

٥ - العوائق الخارجيّة

وهذه العوائق تتعلق بالدعاة الذين لم يخرجوا عن دائرة الالتزام بالشعائر التعبدية، كالصلاة والصيام والزكاة.. الخ، فلا تتعلق إذن بأولئك الذين خرجوا عن دائرة الالتزام إلى دائرة المعصية وهذا لايمنع أن تكون بعض هذه العوائق سبباً في الانتقال إلى دائرة المعصية والعياذ بالله. وأول هذه العوائق:

(١) حب الدنيا..

لا يمكن أن يحب المرء أحدا ثم لايتحرك من أجله، ولا يتفانى في سبيل إرضائه، فالمحب للدنيا لا يمكن أن يكون في قلبه حب لله، هذا ما جزم به الإمام ابن القيم بقوله:

«لا تدخل محبة الله في قلب فيه حب الدنيا، إلا كما يدخل الجمل في سم الإبرة»(٧٢).

فما دام لا يوجد في قلبه حب الله، كيف يتحرك من أجله، ومن أهم أسباب هذا العائق..

أ ـ الخوف على الزوجة والأبناء:

يخشى إن تحرك تلك الحركة الدائبة أن ينكشف لأعداء الدعوة، فيؤذون بذلك الزوجة والأبناء، فيكتفي بالقليل من العمل مع المحافظة على أصول العبادات خوفا من الفتنة، أو أنه ينشغل بتجميع المال والجري وراء تحصيله لكي يؤمن جزءاً من المال بعد موته لزوجته وأبنائه، هذا الشعور الشيطاني

---

(٧٢) الفوائد ١٢٩ ط ـ النفائس.

يدعوه لترك تلك الصفة خوفا من الانشغال بالدعوة عن تأمين مستقبل الأبناء كما يعتقد.

ب ـ الخوف من فقدان المنصب:

فيخاف أن يفقد ذلك المنصب الذي فتن فيه، إن اشتغل في أمور الدعوة، وتحرك تلك الحركة، فيكتفي بلقاءات عامة للدعوة، أو اتصال من بعيد يوشك أن ينقطع.

جـ ـ شعاع جمال الزوجة:

يبهره شعاع جمال الزوجة، فيفتن بجمالها، مما يجعله يستسلم لتأويلات الشيطان عندما يستشهد له بالأحاديث الصحيحة (إن لزوجك عليك حقا)(٧٣) فيفسر ذلك الحق أنه البقاء الدائم معها، وتلبية طلباتها، وينسى شطرا من الحديث (ان لربك عليك حقا)(٧٤) أو أنه يفسر حق الرب فقط في الصلوات المكتوبة والصيام والزكاة وحج البيت، فيخشى إن انشغل بالدعوة وتحرك لها تلك الحركة، أن يقصر في واجب الزوجة فيأثم، أو يهزأ به الأقارب ويتهمونه بأنه ليس امرأً كفؤا للزواج وأنه لايعرف مسؤولياته، أو أنه يفقد رضا الحبيب الجميل، وهو غير مستعد لكل ذلك.

ينسى أن هذه النوعية من الزوجات والأبناء الذين يعيقون الدعاة في أداء رسالتهم ويسلبون منهم تلك الحركة الدائبة المباركة، ليجيلوهم إلى خشب مسندة، ينسى أن الله يسميهم (أعداء) ويطلب منا الحذر منهم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾(٧٥).

أورد الامام الطبري عن عطاء بن يسار قوله:(نزلت في عوف بن مالك

---

(٧٣) (٧٤) البخاري ـ الفتح (١٩٦٨).

(٧٥) التغابن ١٤.

الأشجعي كان ذا أهل وولد، وكان إذا اراد الغزو بكوا إليه ورقّقوه فقالوا: إلى من تدعنا؟ فيرق فيقيم، فنزلت ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ ﴾(٧٦).

ويقول القاضي أبو بكر بن العربي (هذا يبين وجه العداوة، فإن العدو لم يكن عدوا لذاته، وإنما كان عدوا بفعله، فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو كان عدوا، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة)(٧٧).

(٢) استطالة الطريق*

فيرى أن الدعاة مضطهدون في كل مكان، وليس للإسلام دولة، والمحاولات كثيرة لإرجاع دولة الإسلام ولكن لا نتيجة، وقد طال ليل الظالمين، هذا الشعور يجعله يستبطيء النصر، فتخف حركته رويدا حتى يبرد بسبب اليأس ويترك ذلك التحرك الدائب الذي بدأه عندما كان يعتقد بقرب النصر.

وهذه النوعيات من الدعاة ليست وليدة الحركة الاسلامية المعاصرة، فقد وجدت في عهد الإمام ابن القيم، وبسبب العمق التربوي للامام جعله يؤكد أن أحد أسباب ومعوقات التحرك الدائب هو استطالة الطريق، إذ يقول (من استطال الطريق ضعف مشيه)(٧٨) ولكن بسبب اختفاء الخلافة في العصر الحديث وازدياد اضطهاد الدعاة بسبب محاولاتهم إعادة الحكم الإسلامي، وضراوة العداء للدعوة، كل ذلك يجعل هذا العائق أوضح في عصرنا الحديث

---

(٧٦) تفسير القرطبي ١٨/١٤٠.
(٧٧) تفسير القرطبي ١٨/١٤١.
(٧٨) الفوائد ١٠٣ ـ النفائس.
* يراجع في الفصل الثاني «معرفة طبيعة الطريق».

من عصر الإمام ابن القيم، ولكنه ليس ظاهرة منتشرة بين دعاة الحركة، وذلك لوعي قادة الحركة بهذا العائق والمسارعة بوضع العلاج.

فهذا سيد قطب رحمه الله، أحد قادة الدعوة، يشعر بهذا العائق الذي قد يتسرب إلى بعض فئات الشباب الإسلامي فيخاطبهم بروح المستبشر والمتيقن بوعد الله، بأن عمر الظالمين الطغاة قصير، مهما طال ليلهم فلابد من شروق فجر الدعوة ليرد ذلك الظلام الحالك:

أخي ستبيد جيوش الظلام ويشرق في الكون فجر جديد
فأطلق لروحك إشراقها تر المجد يرمقنا من بعيد[79]

ثم شعور آخر يجب أن يضيفه ذلك الأخ المتباطيء إلى الشعور بقصر عمر الظالمين وظلمهم، وهو أن الله سبحانه وتعالى لم يطلب منا النتائج، إنما طلب منا العمل، ولا نعلم إن كنا سنرى النتيجة في حياتنا، أم يؤخرها الله لخلل في الصفوف يحتاج إلى إصلاح، أو لحكمة أخرى لانعلمها، الله يعلمها، فتسبق منيتنا أيام النصر فلا نراه.

(٣) السكون والخمول*

وكان الرسول ﷺ كما جاء في كثير من الاحاديث الصحيحة يتعوذ من العجز والكسل لخطورتها على الداعية في إعاقته عن الحركة، حتى يصل به الأمر إلى الشلل الحركي الكامل.

والكسل هو: (التثاقل والتراخي مما ينبغي مع القدرة، أو عدم انبعاث النفس لفعل الخير، والعاجز معذور والكسلان لا)[80].

---

(٧٩) شعراء الدعوة الإسلامية جـ ٤/٤٣.

(٨٠) فيض القدير ٢/١٢٢.

* سيأتي هذا مفصلا في الفصل الثاني.

ومع أن ذلك الهارب من الحركة، ما ابتعد إلا ابتغاء للراحة، إلا أنه يفقد تلك الراحة التي نشد إما بسبب زيادة الراحة التي تجلب التعب عادة، أو لانشغاله بأمور دنيوية تجعله يلهث وراءها حتى تتعبه فيفقد الراحة التي أراد، وفي ذلك يقول الإمام الأصفهاني:

(من تعود الكسل ومال إلى الراحة فقد الراحة، فحب الهوينا يكسب التعب، وقيل: إن أردت ألا تتعب فاتعب لئلا تتعب)[٨١].

فالذي ينغمس في العمل الدعوي، في الغدو والرواح ينسى التعب لأنه يستلذ تلك الحركة فتنسيه التعب، فالسعادة ليست بالسكون والخمود.

وليست في الابتعاد عن ميدان الجهاد.

وليست في اللقمة التي تأتيك نظير حرق البخور في طرق الطغاة.

وليست في العيش مع القطيع، تعشق الذل وتكره أن تقود.

وليست في عبادة البشر، وإعطائهم صفات الإله، والتصفيق والتطبيل لهم في الخطأ والصواب، بل هي كما رآها شاعر وفقيه الدعوة الإسلامية الدكتور يوسف القرضاوي، الذي أودع في السجن بسبب معرفته لمعنى «السعادة» الحقيقي، وها هو يستغرب ممن يظنون أن السعادة في غير «الميدان الحركي» فيرد عليهم:

«قالوا: السعادة في السكون وفي الخمول وفي الخمود
في العيش بين الأهل لا عيش المهاجر والطريد
في لقمة تأتي إليك بغير ما جهد جهيد
في المشي خلف الركب في دعة وفي خطو وئيد
في أن تقول كما يقال فلا اعتراض ولا ردود
في أن تسير مع القطيع وأن تقاد ولا تقود

(٨١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٦٨ ـ الباز.

في أن تصيح لكل والٍ   عاش عهدكم المجيد
في أن تعيش كما يراد   ولا تعيش كما تريد
قلت: الحياة هي التحرك   لا السكون ولا الهمود
وهي التفاعل والتطور   لا التحجر والجمود
وهي الجهاد وهل يجا   هد من تعلق بالقعود
وهي الشعور بالانتصار   ولا انتصار بلا جهود
وهي التلذذ بالمتاعب   لا التلذذ بالرقود
هي أن تذود عن الحياض   وأي حر لايذود
هي أن تحس بأن كأس   الذل من ماء صديد
هي أن تعيش خليفة   في الأرض شأنك أن تسود
هي أن تخط مصير نفسك   في التهام أو النجود
وتقول: لا، وبملء فيك   لكل جبار عنيد
هذي الحياة وشأنها   من عهد آدم والجدود
فإذا ركنت إلى السكون   فلذ بسكان اللحود
أفبعد ذاك تظن أن   أخا الخمول هو السعيد[82]

هذه هي السعادة، وكل ما عداها فهو ذل لايرضى به الحر الذي خلقه الله من أجل عبادته هو لاشريك له، وبغير خدمة هذا الإله والتحرك السريع والدائب الذي فيه منافسة لحركة النمل والنحل، من أجل نصرة دينه سبحانه وتعالى، فلايمكن الحصول على السعادة.

---

(٨٢) شعراء الدعوة الإسلامية جـ ٤١/٣.

(٤) الجهل

والجهل نوعان . .

أ) جهل بمعنى عدم العلم بقضية معينة.

ب) جهل بمعنى عدم استشعار تلك القضية، مع علمه بتفاصيلها أو هو بمعنى أدق: التبلد الحسي. لذلك لايجد شيئاً يدفعه للعمل لتلك القضية، فيبقى محبوس الجهل، فاترا عن التحرك الدائب، حتى يمن الله عليه بيقظة لقلبه، إذا ما رأى منه عزيمة لعلم ذلك.

أما ان استمر في التبلد أو لم يبذل السبب للتعلم ظل جامدا إلى ما شاء الله.

(٥) التعويق الخارجي[(٨٢أ)]

(٨٢أ) ـ سيذكر في باب طرق تنمية الحركة الدائبة.

طرق تنمية الحركة الدائبة

١- التعرف على الأسماء والصفات

٢- ملاحظة المنة

٣- تذكر الذنب

٤- ملء الفراغ

٥- استشعار الأجر

٦- فقه العبادة

٧- عدم تصديق المعوق والمبطيء

* صور تعويق الحركة الدائبة

طرق تنمية الحركة الدائبة

١ـ التعرف على الأسماء والصفات:

ونقصد بها التعرف على أسماء الله وصفاته فالجهل بها أحد معوقات التحرك الدائب إذ لا يكفي معرفة الاسم أو الصفة دون معرفة مدلولها ومعناها العميق، ومثالا على ذلك..

أ ـ الضار والنافع

لو تناولنا اسم (الضار) واسم (النافع) هذان الاسمان هما اللذان، بسبب الإيمان بهما وبمعناهما العميق، وقف جيل المؤمنين جيلاً بعد جيل، أمام طواغيت البشر، يقولون لهم (لا) بملء أفواههم لايخافون ولا ترتعد فرائصهم من الوقوف أمامهم ولا يخشون تهديدهم بالتعذيب والتقتيل، لأن عروقهم قد تشربت بمعني تلكما الاسمين، إنه لا ضار ولا نافع إلا الله (فما أحوج من يواجه الجاهلية بطاغوتها وجبروتها، وبإعراضها وبالتوائها وكيدها، وبفسادها وانحلالها، ما أحوج من يواجه هذا الشر كله، أن يستصحب في قلبه هذه الحقائق وهذه المشاعر، مخافة المعصية والولاء لغير الله، ومخافة العذاب الرهيب الذي يترقب العصاة، واليقين بأن الضار والنافع هو الله، وأن الله هو القاهر فوق عباده. فلا معقب لحكمه ولا راد لما قضاه.

إن قلبا لا يستصحب هذه الحقائق وهذه المشاعر لن يقوى على تكاليف

(إنشاء) الإسلام من جديد*؛ في وجه الجاهلية الطاغية، وهي تكاليف هائلة تنوء بها الجبال(٨٣).

ب ـ الخالـق

فيعتقد اعتقادا لايخالجه أدنى شك أن الله وحده هو الخالق وأن ما سواه من المخلوقات لايستطيعون خلق بعوضة، ولا أدنى من ذلك ولو اجتمعوا جميعاً لذلك الأمر.

هذا الاعتقاد يجعله يؤمن أن الإنسان هو أحد المخلوقات العاجزة عن أن تخلق شيئا. وبالتالي فإنها لاتستحق ما يستحق الخالق من العبادة وهي الطاعة والذل والخضوع والحب والولاء، ولايمكن أن تكون هذه المخلوقات العاجزة شركاء للخالق الذي خلقهم.

(إن تفرد الله سبحانه بالخلق، يفرده سبحانه بالملك؛ والمتفرد بالخلق والملك يتفرد كذلك بالرزق، فهو خالق خلقه ومالكهم فهو كذلك يرزقهم من ملكه الذي ليس لأحد شرك فيه، فكل ما يقتاته الخلق وكل ما يستمتعون به فإنما هو من هذا الملك الخالص لله. فإذا تقررت هذه الحقائق، الخلق والملك والرزق تقرر معها ـ ضرورة وحتما ـ أن تكون الربوبية له سبحانه، فتكون له وحده خصائص الربوبية وهي القوامة والتوجيه والسلطان الذي يخضع له ويطاع، والنظام الذي يتجمع عليه العباد ـ وتكون له وحده العبادة بكل مدلولاتها، ومنها الطاعة والخضوع والاستسلام)(٨٤).

---

* يقصد سيد ـ رحمه الله ـ إنشاء الاسلام من جديد في نفوس المسلمين.

(٨٣) الظلال ١٠٥٨/٢.

(٨٤) الظلال ١١٦٣/٢.

جـ ـ العلي الأعلى

سمى الله سبحانه وتعالى نفسه (الأعلى) وذلك في قوله سبحانه وتعالى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾(٨٥) وسمى نفسه في موضع آخر (العلي) وذلك في قوله تعالى ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾(٨٦).

يقول الشيخ عبدالرحمن عبدالخالق: (وهذا الوصف «العلو» يتضمن معنيين كليهما ثابت لله سبحانه وتعالى وهما: علو المكان وعلو المكانة، فمنزلة الله سبحانه وتعالى فوق كل منزلة ومكانته سبحانه وتعالى فوق كل مكانة، فهو الواحد الأحد الذي ليس له شبيه من خلقه ولا ند له، ولا مثيل له ولا كفء له سبحانه وتعالى. فمنزلته وعظمته وجلاله لا يدانيها أحد من خلقه جل وعلا، بل جميع الخلق عبيده وفي قبضته وقهره وتحت سلطانه. لاخروج لأحد من قهره وسلطانه أبداً، ولا علم لأحد من خلقه إلا بما شاء، ولا رحمة إلا ما يرسلها، ولا يمسك لرحمته عن من يشاء، بل هو المتصرف وحده سبحانه وتعالى، ومن خالف في شيء من ذلك فهو مشرك جاحد)(٨٧).

فمن آثار هذه الصفة في المؤمن أنه يتوجه في طلبه واحتياجاته لله وحده سبحانه وتعالى عندما يستيقن أنه سبحانه وتعالى فوق كل منزلة، وبعد ذلك ينتج عنده الشعور بالعزة لأنه ينتمي إلى صف الأعلى، فلا يعلو عليه أحد، ولا يغلبه أحد، فيبقى في شعور الانتصار دائماً ما دام في حزبه، وإن حزب الشيطان مهما ملك من السلاح والعلم فإنه مع سلاحه وما يملك وما يمكر لايستطيع أن يتغلب على الأعلى ومن ينتمي إلى صفه، لأنه يبقى تحت رقابته، فيرى تحركاته ومكره ويستطيع أن يسيطر عليه سيطرة كاملة.

---

(٨٥) الأعلى ١.
(٨٦) الشورى ٤.
(٨٧) منهج جديد لدراسة التوحيد ص ٣٢.

فلا يهوله تجمع أهل الباطل ولا تلك الهلامة التي يغلفون بها أنفسهم وباطلهم.

هذه بعض الأسماء والصفات التي بسبب فقهها ننمي في أنفسنا صفات أصحاب «الحركة الدائبة».

٢ـ ملاحظة لمنة:

وهي التفكر بنعم الله التي منها عليك، وتقوم بعملية إحصاء للنعم التي قد أنعمها الله سبحانه وتعالى عليك في لحظة خشوع وأنت في صلاتك عند قولك (الحمد لله رب العالمين) تستشعر من خلالها مامن الله به عليك من النعم، وتتذكر حالك قبل ورود تلك النعمة، فتحس بالفرق بين الحالتين، وتعظم في نفسك نعمة الله فتقوم بشكرها، ولا تكن غافلا عن هذا، فتكون ممن يحصي الله سبحانه وتعالى عليهم يوم القيامة نعمه ولم يشكروها، فقد جاء في صحيح مسلم قول الله لعبد يوم القيامة (أي فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع، فيقول: بلى يارب، فيقول أظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا فيقول فإني أنساك كما نسيتني)[٨٨].

هذا الاحساس يدفع المؤمن لأن يضاعف من أعماله ليؤدي شكر الله تعالى على تلك النعم التي أجزلها عليه.

٣ـ تذكر لذنب:

والذنوب تنقسم إلى أقسام: منها ما اقترف قبل فترة الهداية،ومنها ما اقترف بعد فترة الهداية في فترات الضعف وانخفاض الإيمان. ومنها ما يعتبره

(٨٨) مسلم (٢٩٦٨) في الزهد.

المؤمن من الذنوب وهو ليس منها كأوقات الغفلة والكسل عن أداء النوافل. وخواطر المعاصي التي ترد على النفس.

كل هذه الأقسام، لو تفكر فيها من يريد أن يمتلك صفات أصحاب الحركة الدائبة، وأحس بعظمها عند الله سبحانه وتعالى وقارن أعماله مع أعمال علماء السلف رضوان الله عليهم لازداد بذلك انطلاقا نحو الله ليعوض عن ذلك الإثم الذي قد اقترفه، وحتى يزيد في حسه رضى الله عليه، وإبعاد غضبه عنه، فكلما تذكر الذنب ظن أن الله قد يغضب عليه، فيزداد توبة وخشية لله سبحانه وتعالى.

* أشجار الجاهلية

يقول الإمام الجيلاني لأحد تلامذته (استغث إلى الحق عز وجل، ارجع إليه بأقدام الندم والاعتذار حتى يخلصك من أيدي أعدائك،وينجيك من لجة بحر هلاكك، تفكر في عاقبة ما أنت فيه وقد سهل عليك تركه، أنت مستظل بشجرة الغفلة، اخرج من ظلها وقد رأيت ضوء الشمس وعرفت الطريق، شجرة الغفلة تربى بماء الجهل، وشجرة اليقظة والمعرفة تربى بماء الفكر، وشجرة التوبة تربى بماء الندامة، وشجرة المحبة تربى بماء الموافقة)(٨٩)

ونحن نقول للقادم الجديد من ظل أشجار الجاهلية والتي أسماها الجيلاني شجرة الغفلة وجاء إلى شجرة الهداية أن من عوامل نمو هذه الشجرة التفكير والندم على ما مضى من ذنب أو تقصير أو كسل أو استكانة لتغرس في قلبه خشية دائمة.

هذه الثلاث طرق لتنمية صفات الحركة الدائبة في نفوس الدعاة هي التي اعتبرها الامام ابن القيم مجالا لدوران الهمة حولها، إذ يقول: (الهمة

(٨٩) الفتح الرباني ص ١١٢.

العلية لا تزال حائمة حول ثلاثة أشياء: تعرف لصفة من الصفات العليا، تزداد بمعرفتها محبة وإرادة، وملاحظة لمنة، تزداد بملاحظتها شكرا وطاعة، وتذكر لذنب تزداد بتذكره توبة وخشية، فإذا تعلقت الهمة بسوى هذه الثلاثة جالت في أودية الوساوس والخطرات)[٩٠].

٤ـ ملء الفراغ:

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الانشراح ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾[٩١] قال ابن عباس وقتادة (فإذا فرغت من صلاتك «فانصب» أي بالغ في الدعاء وسله حاجتك). وقال ابن مسعود: إذا فرغت فانصب لعبادة ربك[٩٢].

وعلى تعدد تفسير قوله تعالى (فانصب) بين المفسرين إلا أن جميع التفاسير تنصب في معنى واحد وهو شغل الفراغ بالعبادة، ولا يلزم أن تكون العبادة ذات نمط واحد، إنما تتعدد على حسب استعدادات النفس وعلى حسب الحاجة أو الأهمية فتارة تشغل نفسك بالقراءة، وأخرى بالكتابة والاقتباس، وأخرى بالصلاة والدعاء، وأخرى بزيارة مدعو تدعوه إلى الله سبحانه وتعالى، وأخرى في صلة رحم، أو قضاء حاجة للوالدين، وأخرى في عمل مباح يكون محل استراحة ومحطة وقود تنطلق منها إلى «الحركة الدائبة».

والدافع لشغل الفراغ أمران، أولهما: مفاجأة الموت وثانيهما: مفاجأة المرض، هذا ما كان يخالج نفس الامام البخاري فكان يدفعه لمزيد من العمل، وملء لكل فراغ يجده، ثم أراد أن تدرك الأجيال التي في زمانه، والتي سوف تأتي من بعده هذا الأمر فقال:

---

(٩٠) الفوائد ص ١٣٠ النفائس.
(٩١) الانشراح ٧.
(٩٢) تفسير القرطبي ٧١٩٨/١٠.

اغتنم في الفراغ فضل ركوع فعسى أن يكون موتك بغتة
كم صحيح رأيت من غير سقم ذهبت نفسه الصحيحة فلتة[٩٣]

وثمة دوافع أخرى لشغل الفراغ كالانشغال المستقبلي في التجارة والمال أو مفاجأة الفقر الذي يجعل الإنسان في شغل دائم لطلب الرزق وغيرها من دوافع، إلا أن الموت والمرض لا يتركان لصاحبهما مجالا للعبادة ومجالاتها التي ذكرناها، وأيضا فإننا لانعلم متى يفجؤنا الموت أو المرض، فصار علينا لزاماً شغل فراغنا كله لما يعود علينا في آخرتنا من الخير.

٥ـ استشعار الأجر:

وهذه مسألة ضرورية وعامل رئيسي في الاندفاع نحو العمل وهو من أنجح الأدوية لمعالجة الكسل والخمول، فمثالا على ذلك عندما تقرأ الحديث الذي أخرجه الترمذي عن رسول الله ﷺ «من صلى الفجر في جماعة، ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين، كانت له كأجر حجة وعمرة، تامة تامة تامة»[٩٤].

تشعر بعناد النفس بالمكث بعد صلاة الفجر، خاصة إذا لم يستكف حاجته من النوم، فإن شعوراً آخر يضاد ذلك العناد النفسي والرغبة الجامحة للعودة إلى الفراش، ذلك الشعور هو استشعار ذلك الأجر العظيم، مقابل جهاد نفسي مدته أقل من ساعتين، فيتغلب هذا الشعور الجديد ليترجم الحالة العملية لهذا الاستشعار، وهذا ينطبق على باقي العبادات.

إنما يبدأ التعامل مع العبادة بكسل وخمول عندما يفقد الداعية الاستشعار بالأجر، ولعل هذا هو سر تبيان الرسول ﷺ أجر بعض العبادات، حتى يكون دافعاً للعمل.

(٩٣) طبقات الشافعية ٢/١٥.
(٩٤) الترمذي وصححه الألباني (ص.ج.ص. ٦٢٢٢).

٦ـ فقه العبادة:

ولا يشعر بلذة العبادة إلا من فقهها، وتتحول تلك العبادة إلى حركات ميتة لا روح فيها ولا لذة إذا فقد فقهها.

الكثير منا يذكر الله بأذكار مختلفة، وأدعية مختلفة لكل عمل يقوم فيه، ولكن القليل الذين يفقهون معنى ما يقولون وما يفعلون، فعندما نركب في السيارة نقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾(٩٥) لو فقهنا معنى هذا الدعاء، ونحن على الدابة بأنه (لولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه «وإنا إلى ربنا لمنقلبون» أي لصائرون إليه بعد مماتنا وإليه سيرنا الأكبر، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة)(٩٦).

فعندما نقول «سبحان الذي سخر لنا هذا» نرى عظم هذه الدابة التي نركبها، ولولا تذليل الله لها لنا لنركبها ماقدرنا عليها، فنعظم الله ونحمده على ذلك. وعندما نقول (وإنا إلى ربنا لمنقلبون) ونحن على الدابة وهي تسير نتذكر أننا أيضا سائرون إلى الله. ففي حركة الدابة نتذكر حركتنا نحو الآخرة.

هذا الاستشعار حرى بأن يعطي لكل مسلم وقودا عندما يتذكره في زخم هذه الحياة المادية.

وكذلك حينما نتوضأ للصلاة. لو استشعرنا عندما نغسل أيدينا فإن الذنوب التي اقترفتها أيدينا تتساقط مع الماء الساقط وعندما نتمضمض تخرج كل كلمة قد أغضبت الله سبحانه وتعالى وتنزل مع الماء إلى مكانها الذي يلائمها. وعندما نغسل وجوهنا فإننا نغسلها من كل نظرة محرمة اقترفتها أعيننا، وعندما نغسل آذاننا فإننا نغسلها من كل كلمة فاحشة تعارض كلمات

---

(٩٥) سورة الزخرف ١٣.
(٩٦) تفسير ابن كثير ٤/١٢٣.

التوحيد، فيستقر فيها فقط ما يتناسب مع التوحيد، ونغسل أقدامنا فنطهرها من الخطوات التي خطتها إلى أماكن المعصية واللهو والغفلة. وذلك مصداقا لحديث الرسول ﷺ **(إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقيا من الذنوب)**(٩٧).

ولو استشعرنا ونحن خارجون من المسجد بتقديم القدم اليسرى قبل اليمنى، وأن معنى ذلك هو أننا نقدم اليسرى للدنيا والتى هى أقل طيبا من بيت الله والذى نقدم له اليمنى عند دخولنا، فلو تذكرنا عند كل خروج هذا الأمر، لكنا على تذكر دائم بدناءة الدنيا وهوانها على الله فيجيش فينا الشعور بالعمل للآخرة.

وهكذا فى كل عمل نقوم فيه، أو دعاء نقوله، نستشعر ونتعرف على فقه ما نقول وما نفعل حتى يكون ذلك أحد طرق تنمية الحركة الدائبة فى ذواتنا.

٧ـ عدم تصديق المعوق والمبطئ:

والأجساد المتحركة لا تتوقف إلا بمؤثر داخلي أو خارجي، فإذا افترضنا خلو تلك الأجساد من المؤثرات الداخلية* المسببة للتوقف بقي أن نعرف المؤثرات الخارجية التي أبطأت أو أعاقت أو أوقفت تلك الأجسام المتحركة، وكما أن هذه النظرية تنطبق على الجمادات فإنها تنطبق على البشر تماما. ومن واقع تاريخ الدعوة من عهد الرعيل الأول إلى عهدنا هذا يتبين أن كثيرا من المفتونين والمبتعدين عن صف الجماعة، إنما أبعدهم أو أبطأ بهم، ذلك التأثير الخارجي على أجسامهم التي كانت متحركة.

---

(٩٧) مسلم ٢٤٤ ـ كتاب الطهارة.

* يراجع كتاب [المتساقطون] لفتحي يكن ـ عن المعوقات الداخلية.

والقرآن الكريم فضح هذا الصنف من الناس وجعلهم في صف المنافقين، لأنهم يكونون داخل الصف وينخرون فيه، بتثبيطهم وتعويقهم وتبطيئهم.

- المبطىء

يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾(٩٨)

يقول القرطبي (والتبطئة والابطاء التأخر، تقول: ما أبطأك عنا، فهو لازم ويجوز بطأت فلانا عن كذا أي أخرته، فهو متعد والمعنيان مراد في الآية، فكانوا يقعدون عن الخروج ويقعدون غيرهم)(٩٩).

يقول سيد رحمه الله (ولفظة (ليبطئن) مختارة هنا بكل مافيها من ثقل وتعثر، وإن اللسان ليتعثر في حروفها وجرسها حتى يأتي على آخرها وهو يشدها شداً. وإنها لتصور الحركة النفسية المصاحبة لها تصويراً كاملاً بهذا التعثر والتثاقل في جرسها. وذلك من بدائع التصوير الفني في القرآن الذي يرسم حالة كاملة بلفظة واحدة. وكذلك يشير تركيب الجملة كلها (وإن منكم لمن ليبطئن) بأن هؤلاء المبطئين - وهم معدودون من المسلمين (منكم) يزاولون عملية التبطئة كاملة. ويصرون عليها إصرارا، ويجتهدون فيها اجتهادا.. وذلك بأسلوب التوكيد بشتى المؤكدات في الجملة! مما يوحي بشدة إصرار هذه المجموعة على التبطئة، وشدة أثرها في الصف المسلم وشدة ما يلقاه منها)(١٠٠) لذلك يحذرنا القرآن من هذا الصنف أشد الحذر، ليصفي بذلك صفنا ولننطلق لبناء هذا الصرح الذي هدم منذ أمد طويل، فكل بطء في عملية البناء معناه

(٩٨) سورة النساء ٧٢.
(٩٩) تفسير القرطبي جـ ١٨٤٥/٣، ١٨٤٦ ط - د الثقافة.
(١٠٠) الظلال ٧٠٥/٢.

تأخير في قيام حكم الله الذي يريد.

ب - المعوق

يقول الله تعالى ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(١٠١).

يقول القرطبي (والعوق، المنع والصرف يقال عاقه يعوقه عوقا، وعوقه وأعاقه بمعنى واحد)(١٠٢).

وهؤلاء قد يكونون داخل الصف المسلم وقد يكونون خارجه، وهذه هي طبيعة الإعاقة فإنها لاتأتي من داخل الصف فقط، إنما تكون خارجه بصورة أشد من جميع أعداء هذه الدعوة سواء كانوا من أهل الكتاب، أو الملحدين أو من الذين غطى الران على قلوبهم من بني جلدتنا.

---

(١٠١) سورة الاحزاب ١٨.
(١٠٢)-القرطبي ١٤/١٥١ الكتاب العربي.

صور تعويق الحركة الدائبة

والتعويق يأتي بصور مختلفة، منها:

أ ـ الشبهات:

فقد يأتي بإلقاء الشبهات على العاملين للإسلام لينفر الناس منهم، باختلاق بعض الاتهامات الكاذبة على بعض قيادات العمل الإسلامي لينشر البلبلة بين الصف الواحد.

ومثال ذلك قول فرعون لقومه عن موسى ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾(١٠٣).

ب ـ الإغـراءات:

وقـد يأتي بصورة الإغراءات الدنيوية، من مال أو منصب أو بعض التسهيلات لبعض العاملين في حقل الدعوة بغية فتنتهم، وهذا ما فعلوه مع الرسول ﷺ.

جـ ـ التضييق:

وذلك بسن القوانين التي تعيق الانطلاق للعمل الإسلامي، كمراقبة الخطب والمحاضرات، أو حضور العسكر بزيهم العسكري أثناء إلقاء المحاضرات، أو عدم اعطاء التراخيص للمجلات الإسلامية، أو محاسبة المجلات الاسلامية على كل ما تكتب، وكذلك مراقبة التجمعات حتى وإن كانت في المساجد، وغيرها من الحركات المعوقة للانطلاق الطبيعي للدعوة، كل ذلك يعمل بحجج كثيرة مثل عدم التدخل في شئون الغير، وعدم تعكير

(١٠٣) سورة الشعراء ٢٧.

الأمن الداخلي، وحفاظا على وحدة الصف وغيرها من الحجج التي عادة ما تنطلي على قطاع عريض من الناس.

د ـ التهديد:

وجاء هذا في القرآن في مواضع كثيرة منها تهديد أصحاب القرية للرسل المرسلين إليهم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨﴾(١٠٤).

ويستخدم أصحاب التعويق هذا الاسلوب أحيانا إذا خشوا حدوث رد فعل من الشعب، أو إذا لم يروا مبررا يمنعون فيه الدعاة من دعوتهم، أو إذا لم يكن لديهم حسابات دقيقة بقوة المعارضة.

هـ ـ التعذيب:

وهذا الأسلوب يمارس لاستخراج بعض الاعترافات، ويمتنع المعوق هنا من القتل، لأنه يعلم أنه إذا قتل ذلك الداعية، قتل معه الاعتراف الذي يريد، وهناك سبب آخر لممارسة هذا الأسلوب. وهو تلذذ صاحب التعويق بإذلال المعارض له، وطمعه بأن يأخذ منه إقرارا لسياسته وطغيانه، حتى يقنع نفسه داخليا أنه انتصر على المعارضة، وقد مورس هذا الأسلوب قديما لأتباع الرسل عليهم السلام وما زال يمارس في معظم الدول الاسلامية.

و ـ القتل:

وهذا آخر ما يلجأ إليه الطغاة أصحاب التعويق، عندما يشعرون بشدة الخطر على مراكزهم، أو عندما ييأسون من استخراج كلمة واحدة تقر باطلهم أثناء التعذيب، وكذلك ليرعبوا القاعدة من التحرك. فيحققوا بذلك أعتى أنواع الإعاقة.

ولابد لكل زمان ومكان يوجد فيهما دعوة للحق أن يكون لها معوقون

(١٠٤) سورة يس ١٨.

ومبطئون من الداخل ومن الخارج، ولابد لأصحاب الحركة الدائبة من الوعي بتحركات هاتين المجموعتين والحذر كل الحذر منهما.

٨ـ تذكر البرزخ واليوم الآخر:

إذا علمنا أن أحد المعوقات عن التحرك الدائب هو التعلق بالدنيا فإنه لابد أن يكون العلاج لذلك الزهد في الدنيا.

والزهد في الدنيا لايتأتى إلا بالتذكر الدائم في حياة ما بعد الموت وأهوال اليوم الآخر. ولعلم الرسول ﷺ بأن ذكر الموت كفيل بالزهد في الدنيا وملذاتها فإنه كان يوجه أصحابه رضوان الله عليهم لتذكر الموت. لئلا تفتر هممهم بتعلقهم بالدنيا الفانية فيقول (**اكثروا ذكر هاذم اللذات**)[١٠٥] قال الطيبي (شبه اللذات الفانية والشهوات العاجلة ثم زوالها ببناء مرتفع ينهدم بصدمات هائلة، ثم أمر المنهمك فيها بذكر الهادم لئلا يستمر على الركون إليها ويشتغل عما يجب عليه من الفرار إلى دار القرار)[١٠٦].

وكان صحابته رضوان الله عليهم خوفا منهم من الفتور والركون إلى الدنيا، يطبقون ما كان يوصيهم به رسولهم ﷺ، فها هو هانيء مولى عثمان رضي الله عنه يقول (كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته. فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا؟ فقال: **إن رسول الله ﷺ قال: إن القبر أول منزل من منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه**)[١٠٧].

يقول الإمام المباركفوري (قيل إنما كان يبكي عثمان رضي الله عنه وإن

---

(١٠٥) الترمذي ـ التحفة ٢٤٠٩ وصححه الألباني ص ج ص ١٢٢١.
(١٠٦) تحفة الأحوذي ٦/٥٩٤.
(١٠٧) الترمذي ـ التحفة (٢٤١٠) وحسنه الألباني ص ج ص ١٦٨٠.

كان من جملة المشهود لهم بالجنة، إما لاحتمال أنه لايلزم من التبشير بالجنة عدم عذاب القبر. بل ولا عدم عذاب النار مطلقا مع احتمال أن يكون التبشير مقيدا بقيد معلوم أو مبهم، ويمكن أن ينسى البشارة حينئذ لشدة الفظاعة، ويمكن أن يكون خوفا من ضغطة القبر كما يدل حديث سعد رضي الله عنه على أنه لم يخلص منه كل سعيد إلا الأنبياء.. ذكره القاري (إن القبر أول منزل من منازل الآخرة) ومنها عرصة القيامة عند العرض، ومنها الوقوف عند الميزان، ومنها المرور على الصراط،ومنها الجنة أو النار في بعض الروايات)[١٠٨].

وهذا هو سمت الصحابة رضوان الله عليهم فما كان الموت واليوم الآخر يفارق أذهانهم وذلك لينفكوا من أسر الدنيا التي تكبل المسلم في التحرك الدائب وتجذبه إلى الطين ليتحرك من أجله.

وهذا ابن مسعود رضي الله عنه (مر على هؤلاء الذين ينفخون في الكير فوقع)[١٠٩] ويروى عنه أنه (مر على الحدادين فبصر لحديدة قد احميت فبكى)[١١٠] فكل ما يقع عليه بصره يربطه بالآخرة، وهكذا يجب أن يكون من أراد الانتساب لرواد مدرسة التحرك الدائب.

(١٠٨) تحفة الأحوذي ٦/٥٩٥.
(١٠٩) الزهد ص ١٦٠.
(١١٠) الزهد ص ١٦٣.

الفصل الثاني

الثقة بالنصر

الثقة بالنصر

إن ما تلاقيه الحركة الاسلامية المعاصرة من صنوف البلاء، والمحنة العظيمة التي تكالبت فيها قوى الباطل بشتى أشكالها وألوانها عليها، واستخدمت فيها التكنولوجيا الحديثة لمحاربتها، دون الالتزام بأدنى سلوك إنساني تجاه من يرفع راية «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» مقارنة بالجاهلية القديمة وما تلاها، فما كان أبو جهل مع شراسته وحقده على المسلمين، وسوء خلقه، وجهله حتى كنى بالجهل، ما كان يهدد من أسلم من الصحابة رضي الله عنهم بأعراضهم، وما كان المتدين حتى وإن لم يكن معارضاً للحكم يلاحق، ويشرد، ويراقب في غدوه ورواحه، وصمته وكلامه، وما كانوا يأتون بخبراء التعذيب من خارج الدولة الإسلامية ليقوموا بتعذيب أبنائهم وعلمائهم من الدعاة إلى الله، والمنكرين لمناكرهم، وما كانوا يأخذوا جميع أقارب الدعاة بجريرة الدعاة فيقوموا بتعذيبهم، حتى وإن كانوا أطفالاً، نكاية فيهم، وتخويفاً لمن بعدهم، وما كانوا يطعمونهم الطعام من غير أماكنه، وما كانوا يغمسونهم بماء حار شديد الحرارة ثم يضعونهم بماء مثلج، وما كانوا يجرؤون على السب والشتيمة للعفيفات من أقارب الدعاة. وغيرها من أنواع الانحطاط الأخلاقي بالتعامل مع الإنسان، هذا زيادة على مايلاقيه دعاة الحركة الإسلامية المعاصرة من خطط دقيقة مبرمجة لسلخ المسلمين عن إسلامهم، وتأصيل الجاهلية بشتى أنواعها مكان الإسلام، بكل ما يملك الباطل من وسائل لايملك معظمها الدعاة.

إن دعاة اليوم لايواجهون قريشاً وحدها، ولا القبائل العربية وحدها إنهم يواجهون الطغاة عرباً وعجماً ويواجهون الشيوعية العالمية وفروعها.

والرأسمالية، والحركة التبشيرية، واليهودية العالمية، والماسونية العالمية، والحركات الباطنية، ويواجهون كل ناعق يرفع راية غير راية الإسلام.

إن هذا الكم من البلاء والخصوم لأبناء الحركة الإسلامية، إضافة إلى ما نتج عنه من نتائج إيجابية كثيرة فقد أفرز كذلك بعض النتائج السلبية، والتي منها ما نحن بصدد دراسته في هذا البحث، وهو «**اليأس من النصر**» وهذه من أخطر النتائج لهذه المحنة، إذ أن معتنق هذا الشعور لابد أن يؤدي به إلى إحدى نتيجتين، إما لاستخدام بعض الوسائل التي يتعجل في استخدامها للوصول كما يظن إلى نصر سريع مما يؤدي إلى ضرر له ولجماعته، وإما أن يعتزل عن المجتمع، ويتقوقع في بيته، أو في مسجده.

وكلا النتيجتين خطر وخسارة للحركة الإسلامية، هذا يجعلنا في حاجة ماسة للتعرف على معنى النصر، ومقوماته، وكيفية الانتصار وأسباب تأخره، ووقت الانتصار، إذا ما أردنا القضاء على الإفرازات السلبية الناتجة عن شراسة المحنة مع الباطل.

المعنى اللغوي:

« النصر: إعانة المظلوم، نصره على عدوه ينصره ونصره ينصره نصراً. والنصرة: حسن المعونة. قال الله عز وجل: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ المعنى: من ظن من الكفار أن الله لايظهر محمداً ﷺ، على من خالفه فليختنق غيظاً حتى يموت كمداً، فإن الله عز وجل يظهره، ولاينفعه غيظه وموته خنقاً.

وانتصر الرجل: إذا امتنع من ظالمه. قال الأزهري: يكون الانتصار من الظالم الانتصاف والانتقام، وانتصر منه: انتقم.

والاستنصار: استمداد النصر. واستنصره على عدوه أي سأله أن ينصره عليه.

والتناصر: التعاون على النصر. وتناصروا: نصر بعضهم بعضاً»[أ].

وعلى هذا فإن المعنى اللغوي للنصر يكاد أن ينحصر في خمسة معاني ـ وهي إعانة المظلوم، والتأييد، والامتناع من الظالم، والانتصاف منه والانتقام منه. ومن هذه المعاني اللغوية يتضح بأن النصر لايقتصر معناه فقط على «الاستيلاء علي الأرض وحكمها بالمنهج الذي يرتئيه المنتصر بل يتعدى إلى أكثر من صورة كل منها تدل على صورة من صور النصر، وليس من الضرورة أن تعني كل صورة منها النصر بصورته الكاملة، فالنصر بصورته الكاملة هو مجموع هذه الصور متوجه بالاستخلاف والتمكين.

(أ) لسان العرب ٣/٦٤٧ ط. دار لسان العرب.

تحديد معنى النصر

الصّورة الاولى	انتصار الحركة الاسلامية الحديثة
الصّورة الثانية	انتصار العقيدة
الصّورة الثالثة	استشهاد الدعاة
الصّورة الرابعة	هلاك الطغاة

تحديد معنى النصر

للنصر صور متعددة يتم فيها، فالحكم صورة منه، وهزيمة الخصم صورة منه، والاستيلاء على الأرض صورة منه، وانتصار المبادىء صورة منه، وهزيمة مبادىء الخصم واندحارها صورة منه، وهلاك الخصم صورة منه، فليس للنصر صورة واحدة يعرف بها، ومحاولة البعض حصر النصر في صورة واحدة هو أحد أكبر الأسباب ،لاختلاف فئات الحركة الإسلامية، ولئن كانت جميع هذه الصور قد تمت للنبي ﷺ فلذلك أسبابه الخاصة التي بينها الأستاذ سيد قطب رحمه الله عندما قال «هناك حالات كثيرة يتم فيها النصر في صورته الظاهرة القريبة. ذلك حين تتصل هذه الصورة الظاهرة القريبة بصورة باقية ثابتة. لقد انتصر محمد ﷺ في حياته لأن هذا النصر يرتبط بمعنى إقامة هذه العقيدة بحقيقتها الكاملة في الأرض. فهذه العقيدة لايتم تمامها إلا بأن تهيمن على حياة الجماعة البشرية وتصرفها جميعاً من القلب المفرد إلى الدولة الحاكمة. فشاء الله أن ينتصر صاحب هذه العقيدة في حياته، ليحقق هذه العقيدة في صورتها الكاملة، ويترك هذه الحقيقة مقررة في واقعة تاريخية محددة مشهورة. ومن ثم اتصلت صورة النصر القريبة بصورة أخرى بعيدة، واتحدت الصورة الظاهرة مع الصورة الحقيقية وفق تقدير الله وترتيبه»(١) فإرادة الله شاءت أن ينتصر الرسول ﷺ في حياته بالصورة الظاهرة القريبة، وهي الغلبة بواسطة الحرب على أعدائه كما شاءت إرادة الله أيضا أن ينتصر الرسول ﷺ بعقيدته وهي الصورة الباقية الثابتة فتكون هي المهيمنة رغم شدة البلاء الذي يصيب من يعتنقها، وتندحر عقيدة الشرك رغم القوة التي كانت بجانبها، وشاء الله

---

(١) الظلال ٣٠٨٦/٥.

سبحانه وتعالى أن ينصر رسوله ﷺ فيحكم بعقيدته المنتصرة، وتكون له أرض يحكم فيها، وشاء الله أن يهلك خصومه واحداً تلو الآخر، وشاء الله أن يخيف أعدائه من الدول الكبيرة آنذاك منه مسيرة الشهور، وهذا بحد ذاته نصر، حدث كل ذلك في حياة الرسول ﷺ لحكمة يريدها الله، ولعلها هي التي أشار إليها الأستاذ سيد قطب، «لتحقيق هذه العقيدة في صورتها الكاملة، ويترك هذه الحقيقة مقررة في واقعة تاريخية محددة مشهورة». ومن أبرز صور النصر التي نلمسها أربع صور هي:

الصورة الأولــى: انتصار الحركة الإسلامية الحديثة.

الصورة الثانية: انتصار العقيدة.

الصورة الثالثة: استشهاد الدعــاة.

الصورة الرابعة: هـلاك الطـغــاة.

وفيما يلي تفصيل لهذه الصور.

إن هذه الصور المتعددة من صور النصر قد لاتتحقق في كل جيل، وقد يتحقق شيء منها يسير، أو شيء كثير، وذلك بمقدار ما تبذل الحركة الإسلامية من جهود وتضحيات وصبر ومصابرة.

ورب معارض يعترض على قولنا بانتصار الحركة الإسلامية الحديثة! فأين هذا النصر؟! وما زالت السجون مكتظة بأفراد الحركة الإسلامية؟ وأين الانتصار، وما زال أهل الباطل مسيطرين على مقاليد الأمور؟ وأين الانتصار وأفراد الحركة الإسلامية بين مسجون ومهدد ومطارد ومطرود؟ وأين هذا الانتصار وما زالت كلمة الحق مكتومة؟ وأين الانتصار وقد تضافرت قوى الشر في الداخل والخارج لضرب الحركة الإسلامية؟؟! وما نقول أبدا بخطأ هذه التساؤلات لو أننا قصرنا معنى النصر على معنى واحد، وحددناه في إطار واحد، ولكننا لايخالجنا أدنى شك بأن الحركة الإسلامية الحديثة منتصرة رغم كل هذه التساؤلات إذا ما أدركنا المعنى الواسع للنصر، فعقيدة الحركة الإسلامية ومبادئها منتصرة رغم كل هذه المطاردة، فلا يمكن للقوي أن يكترث بالضعيف لولا أنه يشعر بأن مبادئه أضعف من مباديء خصمه الذي يظنه ضعيفا فها هي الدول العظمى والكيان الصهيوني يحسب ألف حساب للحركة الإسلامية، بينما لا يكترث بالدول العربية أو الإسلامية مجتمعة، وما ذلك إلا بسبب قوة العقيدة الإسلامية التي تعتنقها الحركة الإسلامية، وتعمل على تثبيتها مكان المباديء الأرضية، فها هو المستشرق غاردنر يقول «إن القوة التي تكمن في الاسلام هي التي تخيف أوربة»[٢] ويقول هانوتو، وزير

(٢) التبشير والاستعمار ص ٣٦.

خارجية فرنسا سابقاً «لايوجد مكان على سطح الأرض إلا واجتاز الاسلام حدوده وانتشر فيه، فهو الدين الوحيد الذي يميل الناس إلى اعتناقه بشدة تفوق كل دين آخر»[٣].

ويقول غلادستون رئيس وزراء بريطانيا سابقاً: «**مادام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوربة السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان**»[٤].

وفي افتتاحية عدد ٢٢ أيار عام ١٩٥٢ من جريدة «كيزيل أوزبخستان» الجريدة اليومية للحزب الشيوعي الأوزبخستاني ذكر المحلل مايلي:
«**من المستحيل تثبيت الشيوعية قبل سحق الإسلام نهائياً**»[٥] هذه التصريحات ومثيلاتها تثبت خوف المعسكر الرأسمالي والشيوعي من الإسلام كدين وكمنهج كامل لإسعاد البشرية، وكفاضح لكل ألاعيب الجاهلية الحديثة وظلمها للإنسان، وكمبدأ يزداد اعتناقه يوماً بعد يوم، وهذا ما دعا هذه المعسكرات العالمية للتخطيط للقضاء على كل من يحمل هذا المبدأ ويدعو إليه، ففي عددها الصادر في ١٩٧٩/١/٢١ نقلت صحيفة الرأي الأردنية عن وكالة الأنباء الفرنسية أن صحيفة «الواشنطن بوست» الأمريكية ذكرت أن الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر طلب من وكالة المخابرات الأمريكية أن تعد دراسة عن نشاطات الحركات الإسلامية في العالم كله، ونسبت صحيفة الواشنطن بوست إلى زبيغنيو بريجنسكي مستشار البيت الأبيض آنذاك لشؤون الأمن القومي قوله:

«**إن الإدارة الأمريكية تشعر بقلق بالغ إزاء تزايد نشاط الحركات الإسلامية المنتشرة في العالم الاسلامي، وأن الولايات الأمريكية بحاجة إلى**

---

(٣) الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ١٨.
(٤) الاسلام على مفترق الطرق ـ محمد أسد ـ ص ٣٩.
(٥) الاسلام والتنمية الاقتصادية ـ جاك أوستري ص ٥٦.

إعداد دراسة جديدة حول الحركات الاسلامية المتشددة ليسهل على الإدارة الأمريكية وأصدقائها في المنطقة الإسلامية مراقبتها عن كثب حتى لاتفاجأ باندلاع ثورة إسلامية جديدة في أي مكان في العالم الاسلامي، لأن أمريكا حريصة على عدم السماح للإسلام المتشدد بأن يلعب دوراً مؤثرا في السياسة الدولية» وضمن الخطة التمهيدية لانتخابات الرئاسة الأمريكية التي أسفرت عن فوز رونالد ريغن كان ليندون لاروش واحدا من المرشحين الذين كانوا يتنافسون للفوز بتزكية الحزب الديمقراطي. وقد نشر في معظم المجلات والصحف الأمريكية بتاريخ ١٩٧٩/١١/٩ إعلاناً كان عنوانه:

«فلنطارد الإخوان المسلمين بدون رحمة»

إن هذا الرعب الذي قد انتاب المعسكرات العالمية من عقيدة الحركة الإسلامية وأنشطتها هو بحد ذاته نصر للحركة الاسلامية.

وإن إقبال الشباب من الجنسين من طلاب الجامعات والثانويات ومن الخريجين، ومن العاملين على الإسلام، وعلى تأييد الحركة الإسلامية، رغم علمهم بعداء الأنظمة الداخلية والخارجية لكل منتم أو مؤيد لها لدليل آخر على انتصار الحركة الإسلامية، وإن انكشاف زيف كل الرايات التي كان يحملها الباطل بشتى أشكاله وأنواعه، ويأس معظم المسلمين من الأطروحات التي يطرحها الباطل لإنقاذ الأمة لدليل على انتصار الحركة الإسلامية، وإن ثبات الدعاة بعد محنتهم الطويلة التي ذاقوا فيها ألواناً من العذاب وعودتهم بعد ذلك للدعوة أصلب عوداً دليل على انتصار الحركة الإسلامية، وإن فشل الطغاة، خصوم الحركة الاسلامية بالقضاء عليها أو احتوائها، أو احتواء رجالاتها، منذ سقوط الخلافة الإسلامية حتى الآن فهو نصر يضاف إلى هذه الانتصارات التي أحرزتها الحركة الإسلامية. فهل بعد هذا كله يحل لمعترض أن يقول بغير ما قلناه من انتصار الحركة الإسلامية، وإن لم يهيمن مبدئها على مقاليد الأمور بعد، وذلك لوقت يحدده الله تعالى بعلمه للغيب، وحتى

يكون أفراد الحركة قد أعدوا أنفسهم إعداداً يليق بحمل هذه الأمانة التي عجزت عنها السموات والأرض والجبال، ولابد أن تستقر في نفوس الدعاة حقيقة من حقائق النصر، وهي أنه لايمكن لنصر أن يكتمل دون أن يسبقه نصر للعقيدة حتى وإن مات الدعاة لها، فما دامت هي منتصرة حية، فلابد أن يحملها آخرون حتى تتم حقيقة النصر الكاملة بإذن الله.

انتصار العقيدة لايعني أبدا انتصار أفرادها، كما لايعني انتصارها وهم أحياء بل قد يكون في موتهم انتصار لعقيدتهم، وأيا كان لون النصر فإن وعد الله قائم بانتصار عباده الصالحين، وانتصار عقيدتهم، إذ يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾[٦].

يقول سيد رحمه الله «والوعد واقع وكلمة الله قائمة، ولقد استقرت جذور العقيدة في الأرض، وقام بناء الايمان؛ على الرغم من جميع العوائق، وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة والمتبعين. ولقد ذهبت عقائد المشركين والكفار وذهبت سطوتهم ودولتهم، وبقيت العقائد التي جاء بها الرسل. تسيطر على قلوب الناس وعقولهم، وتكيف تصوراتهم وأفهامهم. وما تزال على الرغم من كل شيء هي أظهر وأبقى ما يسيطر على البشر في أنحاء الأرض. وكل المحاولات التي بذلت لمحو العقائد الإلهية التي جاء بها الرسل، وتغليب أية فكرة أو فلسفة أخرى قد باءت بالفشل حتى في الأرض التي نبعت منها. وحقت كلمة الله لعباده المرسلين، أنهم لهم المنصورون وإن جنده لهم الغالبون﴾[٧]

حادثة الأخدود

تروي روايات التاريخ[٨] بأن ملكاً من ملوك حمير يسمى ذا نواس قد

(٦) الصافات ١٧١، ١٧٢، ١٧٣.

(٧) الظلال ٥/٣٠٠١، ٣٠٠٢.

(٨) البداية والنهاية ٢/١٢٩، ١٦٧.

خد الأخاديد للموحدين في بلده، وأضرم بها النار وقذفهم فيها، لأنه أرادهم على دينه الوثني فأبوا إلا التوحيد، وقد جاءت هذه القصة في سورة كاملة من سور القرآن وهي سورة البروج، كما جاء في بعض الأحاديث الصحيحة قصة هؤلاء الموحدين مع ذلك الملك الطاغية والغلام المؤمن، والتي تحكي قصة إصرار أصحاب العقيدة على عقيدتهم، وإن أزهقت أرواحهم مادام في موتهم نصر لعقيدتهم، يقـول سيد قطب رحمه الله في تعليقه على هذا الحادث «لاتذكر الروايات التي وردت في هذا الحادث كما لاتذكر النصوص القرآنية، أن الله قد أخذ أولئك الطغاة في الأرض بجريمتهم البشعة كما أخذ قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط. أو كما أخذ فرعون وجنوده أخذ عزيز مقتدر.

ففي حساب الأرض تبدو هذه الخاتمة أسيفة أليمة!

أفهكذا ينتهي الأمر، وتذهب الفئة المؤمنة التي ارتفعت إلى ذروة الإيمان؟ تذهب مع آلامهـا الفـاجعة في الأخدود؟ بينما تذهب الفئة الباغية، التي ارتكست إلى هذه الحمأة، ناجية؟

حساب الأرض يحيك في الصدر شيئا أمام هذه الخاتمة الأسيفة! ولكن القرآن يعلم المؤمنين شيئا آخر، ويكشف لهم عن حقيقة أخرى ويبصرهم بطبيعة القيم التي يزِنون بها، وبمجال المعركة التي يخوضونها.

إن الحياة وسـائر مايلابسها من لذائذ وآلام، ومن متاع وحرمان.. ليست هي القيمة الكبرى في الميزان.. وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربح والخسارة، والنصر ليس مقصورا على الغلبة الظاهرة فهذه صورة واحدة من صور النصر الكثيرة. إن القيمة الكبرى في ميزان الله هي قيمة العقيدة، وإن السلعة الرائجة في سوق الله هي سلعة الايمان. وإن النصر في أرفع صوره هو انتصار الروح على المادة، وانتصار العقيدة على الألم، وانتصار

الإيمان على الفتنة. وفي هذا الحادث انتصرت أرواح المؤمنين على الخوف والألم، وانتصرت على جواذب الأرض والحياة، وانتصرت على الفتنة انتصارا يشرف الجنس البشري كله في جميع الأعصار. وهذا هو الانتصار..»[٩] إن إدراك هذه المعاني الكثيرة من معاني النصر والتي على رأسها انتصار العقيدة هي التي جعلت الصحابي الجليل حرام بن ملحان عندما طعن في حادثة بئر معونة يقول كما روى عنه أنس بن مالك رضي الله عنه «**لما طعن حرام بن ملحان يوم بئر معونة، قال بالدم هكذا، فنضحه على وجهه ورأسه ثم قال: فزت ورب الكعبة**»[١٠] إن هذا الفهم للفوز هو الذي جعل القاتل يسلم بعد حين، عندما كان يفكر دائماً بمعنى هذه الكلمات وهو يدرك أنه قد أراق دمه، وكان يقول «مما دعاني إلى الإسلام أني طعنت رجلاً منهم فسمعته يقول: فزت والله، فقلت في نفسي: مافاز؟ أليس قد قتلته؟ حتى سألت بعد ذلك عن قوله فقالوا: الشهادة، فقلت: فاز لعمر الله»[١١].

---

(٩) معالم في الطريق ١٧٥، ١٧٦.

(١٠) البخاري ـ الفتح ٤٠٩٢.

(١١) أسد الغابة ٣١٥/١ ترجمة جبار بن سلمى.

إن مدرسة «حرام بن ملحان» رضي الله عنه نحتاج إلى تأصيلها في نفوس دعاة اليوم، وترسيخ جذورها على أرض الحركة الإسلامية الحديثة، فالشهادة نصر وليست خسارة، وأكثر من ذلك فإن الله تعالى لم يحسبها نهاية، بل عدها حياة طيبة، وخطأ من يظن بأن الشهداء أموات فقال سبحانه وتعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[١٢] إن المفاهيم المقلوبة التي رسخت في أذهاننا ردحا من الزمان بسبب الإعلام الجاهلي، والأعراف الجاهلية السائدة، والقيم الأرضية التي تسيطر على حياتنا كثيرا من الأحيان تحتاج إلى غربلة، ورجعة إلى الأصول، يقول سيد قطب رحمه الله «ما النصر؟ وما الهزيمة؟ إننا في حاجة إلى أن نراجع ما استقر في تقديرنا من الصور، ومن القيم، قبل أن نسأل أين وعد الله لرسله وللمؤمنين بالنصر في الحياة الدنيا!»[١٣] ويستطرد في موضع آخر فيقول « لو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والإيمان في هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك. وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها. وأول ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها، ويختفوا هم ويبرزوها!

والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صور معينة معهودة لهم قريبة الرؤية لأعينهم. ولكن صور النصر شتى. وقد يتلبس بعضها بصورة الهزيمة عند النظرة القصيرة.. إبراهيم عليه السلام وهو يلقى في النار فلا يرجع عن

(١٢) آل عمران ١٦٩.
(١٣) الظلال: ٥ / ٣٠٨٦.

عقيدته، ولا عن الدعوة إليها. . أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة؟ ما من شك ـ في منطق العقيدة ـ أنه كان في قمة النصر وهو يلقى في النار. كما انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار»[١٤] وقد يلبس الشيطان على الكثير بأن موت الداعية هزيمة للدعوة، ويرد سيد على هذا الادعاء فيقول: «**كم من شهيد ماكان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام، كما نصرها باستشهاده. وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة، ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه، فتبقى حافزاً محركاً للأبناء والأحفاد. وربما كانت حافزاً محركاً لخطى التاريخ كله مدى أجيال**»[١٥] ولا أدل على صدق هذه الكلمات مما حدث لكاتبها رحمه الله فكم كتب سيد في حياته من الكتب، وكم خطب من الخطب، ولكن خطبته الأخيرة التي سطرها بدمه في سبيل عقيدته هي التي أحدثت هذا الدوي الحركي، والذي مازال يسمع صداه في أرجاء المعمورة حتى هذه اللحظات.

فلايمكن أن يقال بعد ذلك عن استشهاد الدعاة بأنها خسارة، بل هي قمة من قمم النصر في الميزان الرباني، فالشهادة هي مفتاح النصر، لأنها البرهان الساطع على صدق الدعاة إلى الله، وشرط من شروط انتشار دعوتهم. يقول الدكتور خالص جلبي «إن من شرط انتشار الدعوة أن تفقد بين الحين والآخر بعضاً من عناصرها، وإلا ما سرت في المجتمع وغيرت تياره وأصبحت موضع إعجاب، تماما كما يحدث لأي مصنع، فهو يؤسس نفسه من أجل تقديم مواد استهلاك، وإذا لم تستهلك عناصره توقف إنتاجه، مع مراعاة أن يكون استهلاكه موازياً لما يتكلف من مواد خام على الأقل، وهكذا فالحركة عندما تلتحم بالجماهير، سوف تمدها الجماهير دوماً بدماء جديدة، وسوف تحدث تضحيات، ولكن استمرار الالتحام بالجماهير سوف يعوض، بل أكثر من هذا **كما تفعل العضوية وفق قانونها الشهير حيث ان النزيف يحرك مصانع التنقية**

---

(١٤)،(١٥) الظلال: ٥/ ٢٠٨٦.

لتصنيع الدم من جديد، فالنزف يحرك التصنيع، والشهداء يحركون ضمير الأمة لتمدهم بطلائعها المخلصة»[١٦] والانتصار الكامل لايحدث حتى تزال كل العوائق التي تعيق الوصول إلى قمة النصر، ولاشك أن من أكبر هذه العوائق وجود الطواغيت فهلاكهم نصر لاشك فيه لصالح الدعوة الإسلامية، وصورة من صوره.

---

(١٦)ظاهرة المحنة ص ٣٠.

يقول تعالى ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ۝﴾[17].

أورد الامام ابو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله عند قوله ﴿إنا لننصر رسلنا.. الآية﴾ سؤالا فقال: «قد علم أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعياً، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى فأين النصرة في الدنيا؟»[18].

ثم أجاب عن ذلك بجوابين أحدهما «أن يكون الخبر خرج عاماً والمراد به البعض، قال: وهذا سائغ في اللغة، والثاني أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم مما آذاهم، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم كما فعل بقتلة يحيى وزكريا وشعيا، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم، وسفك دماءهم، وقد ذكر أن النمرود أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود فسلط عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم وأظهرهم الله تعالى عليهم ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير ويكسر الصليب، ويضع الجزية، فلا يقبل إلا الاسلام، وهذه نصرة عظيمة وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا، ويقر أعينهم ممن آذاهم»[19] ويؤكد

(١٧) غافر ٥١.
(١٨)، (١٩) تفسير ابن كثير ٤/٨٣.

هذا الاستدلال قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢٠).

إن القضية التي يثيرها إمام المفسرين الطبري في القرن الثالث الهجري عن تحديد معنى النصر، هي ذاتها قضية اليوم، بعدما غاب عن الكثير المعاني الدقيقة للنصر، وحصروا النصر بأخذ مقاليد الحكم، والتربع على العرش، فكرسوا كل حركتهم من أجل هذه الغاية، وتركوا أصولاً كثيرة لايمكن للنصر أن يتم بدونها، وهنا يذكر الإمام الطبري بأن الانتقام ممن آذى الدعاة هو بحد ذاته نصر في الدنيا، حتى وإن لم يكن في حياتهم وعلى أيديهم، وهذا يؤدي إلى النصر الكامل بإذن الله، وإن بشائر هذا اللون من النصر بات واضحاً جلياً لايخفى، فلايجوز أن ييأس الدعاة من زوال الظلمة بسبب طول مكثهم وظلمهم، فأين فرعون وهامان وجنودهما، وأين النمرود وأبو لهب وأبو جهل، وأين هولاكو، والمعز الفاطمي، وأين أتاتورك وشاه إيران والسادات والنميري، وأين ماركوس وساموزا ودوفاليه، وماذا كان مصير أولئك في الدنيا قبل الآخرة؟!! أفلا يعتبر الطغاة ويطمئن الدعاة لانتقام الله لهم من الطغاة وإزالتهم عن طريق النصر الذي يعملون له، ها هو شاعر الشباب وليد الأعظمي يصيح في الطغاة مذكراً لهم بمصارع القوم.

«يا تائهاً غره مال ومنزلة ... لا تنس قبلك «فرعونا» و «قارونا»
صالوا وجالوا وباعوا واشتروا وطغوا ... وسخروا «بالملايين» الملايينا
وحاربوا الله فاسودت وجوههم ... وأصبحوا مثلا للمستبدينا
فليعتبر من له قلب وباصرة ... وليتئد من يداجي في تصافينا(٢١)

---

(٢٠) الروم ٤٧.
(٢١) أغاني المعركة - بيارق النصر ص ٤٠.

وإذا لم يشأ الله بأخذ الطغاة في الدنيا فإنه لن يتركهم في الآخرة لهذا قال تعالى مطمئنا الدعاة بأنه ليس غافلاً عن ظلم الطغاة إنما يؤخرهم ليوم القصاص فيقول ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾[٢٢].

---

(٢٢) ابراهيم ٤٢، ٤٣.

مقومات الثقة بالنصر

١ معرفة طبيعة الطريق

٢ الخلاص من اليأس

٣ هزيمة الباطل

٤ الاستيقان من نصر الله

٥ بين العمل والنتيجة

مقومات الثقة بالنصر

وحتى تتأصل في نفوس الدعاة قضية «الثقة بالنصر» بعد تحديد معناه لابد من توفر مقومات تساعد على هذا التأصيل التربوي، من أهمها «**معرفة طبيعة الطريق**» لأن جهل البعض بطبيعة الطريق هو الذي يؤدي إلى النتائج العكسية التي تؤثر سلبا في مسيرة الحركة الاسلامية فتجعلها تتعثر هاهنا وهاهناك، ومنها «**تنقية نفوس أفراد الحركة من اليأس**» بإدراك العوامل المؤدية لليأس، ومنها «**الاستيقان من النصر**» والثقة بوعد الله للفئة المؤمنة بالتمكين والاستخلاف في الأرض، ومنها معرفة أن الله «**يريد منا العمل ولا يريد النتائج**» الأمر الذي يؤدي إدراكه إلى المزيد من العمل مادام هو المطلوب وعدم التقاعس والحسرة بسبب عدم رؤية النتائج، وآخرها «**الشعور بالاستعلاء**» الايماني الذي ينتج عنه الاعتزاز بما يحمله من مبدأ فيرفض بذلك الضيم والهوان في ظل أحكام الطغاة وقوانينهم، وتجعله لاينخدع بالبهرج والزينة المصطنعة التي يتزين بها الباطل ليخفي وجهه الحقيقي. وبغير هذه المقومات يصبح من المتعذر غرس «الثقة بالنصر» في نفوس أفراد الحركة الاسلامية.

أولاً: معرفة طبيعة الطريق

١ - طول الطريق

٢ - وعورة الطريق

٣ - الصبر على وعورة الطريق

٤ - قلة السالكين

أولاً ـ معرفة طبيعة الطريق

إن من أكبر المشاكل الداخلية في جسم الحركة الاسلامية أن ترى في بعض أفرادها من لايعرف طبيعة الطريق الذي هو سالكه، فيستغرب طوله ويستبطيء النصر، ويسأم من طول الانتظار، الأمر الذي يجعله يتخلى عن زمرة الحق، ليعيش كما يعيش العوام، أو أنه ظن خطأ عند الابتداء بأن الطريق الذي سيسلكه ممهد ، خالٍ من العوائق، فإذا به يفاجأ بالعوائق تترى، مما يجعله يسقط، أو يفتر من شدة وقع المفاجأة التي لم يُرَبِّ نفسه عليها منذ البداية، وفرد مثل هذا من الصعب عليه أن يصبر، ويحتسب في سبيل الله ما يصيبه، ولا نستطيع أن نربط عدم تحمله وسقوطه في الطريق بسبب عدم الاعداد المبكر فقط، إنما لذلك أكثر من سبب من أهمها عدم علمه بالجاهلية، واستيحاشه لقلة السالكين مع كثرة أهل الباطل وظنه بأن الباطل خالد لايهزم. لهذا كله كان **«معرفة طبيعة الطريق»** من أهم المقومات لتأصيل **«الثقة بالنصر»**.

١ ـ طول الطريق

لا بد لسالك طريق الحق أن يهيء نفسه لطريق طويل، ويعد الزاد حتى لايسقط أثناء الطريق، ويتوقف عن المسير، أو تخور قواه لانتهاء الزاد، زاد يجمع فيه كل أنواع المثبتات على هذا الطريق ففيه التقوى، واليقين بنصر الله في نهاية الطريق، وصبر ومصابرة، ومن الزاد لون آخر غير ذلك، وهو ان يعلم بأن زوال الخلافة الاسلامية مضى عليه اكثر من نصف قرن من الزمان، وأن الخطط التي أعدت ونفذت حتى يصل المسلم إلى هذه المنزلة

من الانحطاط قد مضى عليها أكثر من قرن كامل، تخلله تداعي أعداء الدين من كل صوب وحدب على هذه الأمة كما تداعي الأكلة إلى قصعتها، كل يقطع بهذا الجسد بآلة هو قد اخترعها تختلف عن آلة القطع التي يستخدمها صاحبه على القصعة، فلا يمكن أن يعاد المجتمع الاسلامي المنشود، في ليلة أو ضحاها، بل ان من الزاد الذي يحمله الداعية في هذا الطريق أن يعلم بأن ذلك الانتشال يحتاج إلى جهد طويل في طريق طويل، ذلك لأن بناء الانسان يختلف عن بناء الجهاد.

مصارحة

ولخطورة الجهل «بطول الطريق» كان الامام البنا يشعر أنه لزاماً عليه أن يوضح للطلائع الأولى التي التحقت بالإخوان طول الطريق، حتى لا يفاجئوا أثناء المسير، فقال لهم مصارحاً في مؤتمرهم الخامس: «أيها الإخوان المسلمون، وبخاصة المتحمسون المتعجلون منكم: اسمعوها مني كلمة عالية داوية من فوق هذا المنبر في مؤتمركم هذا الجامع: ان طريقكم هذا مرسومة خطواته موضوعة حدوده. ولست مخالفاً هذه الحدود التي اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول، أجل قد تكون طريقا طويلة ولكن ليس هناك غيرها. إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها أو يقتطف زهرة قبل أوانها فلست معه في ذلك بحال، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات. ومن صبر معي حتى تنمو البذرة وتنبت الشجرة، وتصلح الثمرة، ويحين القطاف، فأجره في ذلك على الله ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين: إما النصر والسيادة، وإما الشهادة والسعادة»(٢٣).

---

(٢٣) مجموعة الرسائل ص ١٢٧ ط. المؤسسة الاسلامية.

لقد كانت هذه المصارحة ضرورية لأولئك الجدد في طريق الدعوة، ضرورة أشار إليها الامام ابن القيم من قبل حين قال:

«من استطال الطريق ضعف مشيه»[٢٤].

وما كان الامام البنا يريد أن يمشي معه من يضعف مشيه في أول حركة منظمة تقوم بعد سقوط الخلافة.

كيف يقطع الطريق ؟

ولما كان هذا الطريق طويلا، كان لابد لسالكيه أن يبحثوا عن طرق لقطعه، إضافة إلى الزاد الذي حملوه معهم، وقبل البحث عن الطرق والوسائل التي تعين على قطعه لابد من تحديد الاتجاه لأنه بغير تحديد الاتجاه سيتعرض السالكون إلى الضياع، والاتجاه الموصل إلى النصر في هذا الطريق الطويل، هو الاتجاه إلى الله، وبغير الاخلاص لايمكن الحصول على التوفيق والسداد، لهذا لم يفت الامام ابن الجوزي أن يوقف قوافل الدعاة، وهو يراهم يسلكون هذا الطريق ليقول لهم من معين خبرته.

«ان الطريق الموصلة إلى الحق سبحانه ليست مما يقطع بالاقدام وإنما يقطع بالقلوب. والشهوات العاجلة قطاع الطريق، والسبيل كالليل المدلهم، غير أن عين الموفق بصر فرس، لأنه يرى في الظلمة كما يرى في الضوء، والصدق في الطلب إينار أين وجد يدل على الجادة وإنما يتعثر من لم يخلص، وإنما يمتنع الاخلاص ممن لا يراد»[٢٥].

إن من أبسط مبادىء الهندسة هي النظرية القائلة «بأن الخط المستقيم هو أقصر الطرق» ويكون منطقيا بأن الخط الملتوي المتعرج أبعد الطرق هذا

---

(٢٤) الفوائد ١٠٢ - النفائس.

(٢٥) صيد الخاطر ٣٠٧.

ما أراد أن يقوله الامام ابن القيم، عندما رأى قوافل الدعاة أثناء الطريق قد حاد بعضهم عن الطريق فصاح بهم منبهاً «**إنما يقطع السفر ويصل المسافر بلزوم الجادة وسير الليل، فإن جاد المسافر عن الطريق، ونام الليل كله فمتى يصل إلى مقصده**»[26].

إن طول الطريق ربما أدى بالبعض إلى الملل أو إلى الشك بأنه هو الطريق الموصل، فلابد من «الثقة بالطريق» حتى يستمر المسير، هذا ما نبه إليه تلميذ الامام البنا، الاستاذ مصطفى مشهور وهو يرى قوافل الدعاة تمر على عتبة كتابه «طريق الدعوة» فأبى إلا إكرام ضيوفه بما عنده فقال لهم وقد أصغى الجميع لمن سار قبلهم في هذا الطريق قرابة نصف قرن «**على السائرين في طريق ما أن يثقوا في ذلك الطريق، ويطمئنوا إلى أنه الموصل إلى الغاية التي يقصدونها، حتى لايتعرضوا إلى التيه والضياع، وكيلا يثنيهم الشك وعدم الثقة عن مواصلة السير وبذل الجهد، فيقعدوا أو يتحولوا، وتتفرق بهم السبل**. وطريق الدعوة أولى بهذه الثقة، فهو الطريق الأصل الذي يربط المسلم كل أمور حياته به ويسخر له كل مايملك من نفس ومال وجهد وفكر ووقت، إذ عليه يتوقف مصيره ومستقبله الحقيقي»[27].

---

(٢٦) الفوائد ١٣١.

(٢٧) طريق الدعوة (١) ص ٨٩.

٢ - وعـــورة الطـــريق

إنها طريق وعرة، متعبة، قد غرست فيها الصخور الحادة، والأشواك المؤذية، وليس ذلك سرا يخفيه صاحب هذه الدعوة، فقد كثرت الآيات التي تبين وعورة الطريق، فقال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾(٢٨)

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١١٠ ﴾(٢٩).

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾(٣٠) وقال تعالى ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(٣١) وآيات غيرها تدل على وعورة الطريق.

الرسـول القائد يوضح الطريق

ولم يأل رسول الله ﷺ جهدا بتوضيح وعورة الطريق لأتباعه منذ الأيام الأولى للدعـوة، فقد قال لهم ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه **«حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره»**(٣٢).

يقول الامام ابن حجر «فإن المراد بالمكاره هنا ما أمر المكلف بمجاهدة

---

(٢٨) العنكبوت ١-٣.
(٢٩) النحل ١١٠.
(٣٠) الكهف ٧.
(٣١) آل عمران ١٤٢.
(٣٢) البخاري - الفتح ٦٤٨٧.

نفسه فيه فعلا وتركاً كالإتيان بالعبادات على وجهها، والمحافظة عليها، واجتناب المنهيات قولاً وفعلاً، وأطلق عليها المكاره لمشقتها على العامل، وصعوبتها عليه، ومن جملتها الصبر على المصيبة والتسليم لأمر الله فيها، والمراد بالشهوات ما يستلذ من أمور الدنيا مما منع الشرع من تعاطيه إما بالأصالة، وإما لكون فعله يستلزم ترك شيء من المأمورات، ويلتحق بذلك الشبهات، والإكثار مما أبيح خشية أن يوقع في المحرم، فكأنه قال: لايوصل إلى الجنة إلا بارتكاب المشقات المعبر عنها بالمكروهات، ولا إلى النار إلا بتعاطي الشهوات، وهما محجوبتان فمن هتك الحجاب اقتحم»[٣٣].

وكذلك نراه يؤكد على توضيح وعورة الطريق عند بيعة العقبة، عندما عرض عليهم بنود البيعة التي تنوء بحملها السموات والأرض والجبال، قالوا: مالنا، فأجاب بأن لهم الجنة، وأراد بذلك أن يوضح لهم أنه من أراد الجنة فلابد أن يتحمل كل الصعاب في طريقها.

خبـاب يشـتكي

جاء في ترجمة الصحابي الجليل خباب بن الأرت في «صفة الصفوة» أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سأله «عما لقيَ من المشركين. فقال خباب: يا أمير المؤمنين انظر إلى ظهري. فقال عمر: ما رأيت كاليوم، قال: **أوقدوا لي ناراً فما أطفأها إلا ودك ـ دسم اللحم ودهنه ـ ظهري**»[٣٤] وكان خباب قد جاء إلى النبي ﷺ حينما كان يفتن في مكة، ويعذب ذلك التعذيب. جاء يشتكي إليه وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقال له: «ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها

---

(٣٣) فتح الباري ١١/٣٢٠.
(٣٤) صفة الصفوة ١/٤٢٩.

فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لايخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[٣٥].

كان الرسول ﷺ بلا شك يرى آثار التعذيب على خباب وكان بإمكانه الدعاء له فيزيل الله عنه وصحبه ذلك البلاء، ولكنه أراد أن يغرس في نفوس أصحابه طبيعة الطريق، وتكاليف النصر، وعظم الأمانة التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال، فأنى لإنسان لايتحمل البلاء والايذاء في سبيل الله أن يتحملها، ولو أنه حملها وأعطيت له وهو ضعيف لم يتمحص بالبلاء والفتن، ولم يثبت، فإنه سيضيعها، ويسيء إليها، والله لايريد أن تضيع الأمانة على أيدي الضعفاء، لذلك جاء في رواية أخرى توضح غضب الرسول ﷺ من سؤال خباب لعدم معرفته الحكمة وراء الابتلاء، يقول خباب: «فقلت يارسول الله ألا تدعو الله لنا؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال: لقد كان من قبلكم... الحديث»[٣٦].

فهو يريد أن يبين لهم أنه ما من نصر لأصحاب الحق إلا ويسبقه بلاء لأصحابه فيسوق لهم أخبار الأمم التي قد مضت، وكيف واجهوا المحنة بقلوب ثابتة، ثم وضح لهم أن النصر والأمان المصاحب له سيأتي لا محالة، ولكن بعد أن يتجاوزوا ضريبة النصر من الابتلاء والتمحيص.

«سأل رجل الشافعي فقال: يا أبا عبدالله، أيما أفضل للرجل أن يمكّن أو يبتلى فقال الشافعي: **لا يمكّن حتى يبتلى، فإن الله ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكنهم، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة**»[٣٧].

(٣٥) رواه البخاري ـ الفتح ٦٩٤٣.
(٣٦) البخاري ـ الفتح ٣٨٥٢.
(٣٧) الفوائد ٢٦٩ النفائس.

تصور خاطيء..

ومن خلال الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة نستطيع أن نجزم بخطأ التصور القائل بالنصر دون ابتلاء، وإن مما يحز في النفس أن البعض مازال يكيل الاتهام تلو الاتهام للحركة الاسلامية في مصر ويتهمها بقصور النظر والتخطيط، الأمر الذي أدى إلى هذه الابتلاءات المتعاقبة.

ولقد رد الاستاذ مصطفى مشهور على هذا التصور حيث قال: «لقد تعرض الرسل والداعون إلى الله على مر الأزمان للايذاء والتعذيب والقتل من أعداء الله بسبب قيامهم بواجب الدعوة إلى الله ولو أراد الله عز وجل أن يحول بينهم وبين هذا الايذاء لفعل وهو بهم رؤوف رحيم. لكنه سبحانه لم يفعل، وتركهم هكذا يتعرضون لصنوف الأذى والعذاب»(٣٨) ثم يقول «هل تركهم الله ولم يحمهم من أذى الكفار لأنهم أخطأوا وأن عليهم أن يتحملوا نتيجة خطئهم؟ **هل يعقل أو يقبل من أحد أن ينسب ما تعرض له الرسل والذين آمنوا معهم من أنواع البلاء إلى أخطاء صدرت عنهم أثناء سيرهم بدعوة الله؟ إننا نقول على العكس من ذلك فإن تمسكهم بدعوة الله، واستقامتهم على أمر الله هما سبب تعرضهم لهذا الأذى، ولو أنهم انحرفوا أو فرطوا أو داهنوا لما تعرضوا للايذاء والعنت»**(٣٩) إننا لانقول بعصمة الحركة الاسلامية من الأخطاء، ولكن نريد أن نقرر بأن البلاء الذي يقع على الحركة الاسلامية ليس سببه الأخطاء، إنما هو سنة من سنن الله تعالى ليعلم الصادق من الكاذب وليمحص عبده، ويقوي عوده، قبل أن يسلمه الأمانة، هكذا يريد الامام ابن القيم أن يوصلها لأبناء الحركة الاسلامية بأن على الواحد منهم **«أن يعلم أن المصيبة ماجاءت لتهلكه وتقتله، وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه، فيتبين حينئذ هل يصلح**

---

(٣٨) (٣٩) طريق الدعوة (١) ص ٦٦.

لاستخدامه وجعله من أوليائه وحزبه أم لا؟ فإن ثبت اصطفاه واجتباه وخلع عليه خلع الاكرام، وألبسه ملابس الفضل، وجعل أولياءه وحزبه خدماً له، وعوناً له، وإن انقلب على وجهه ونكص على عقبيه طرد وصفع قفاه، وأقصى وتضاعفت عليه المصيبة»[٤٠] ويخاطب الشاعر مأمون جرار الغفاة الراقدين، الذين يريدون نصراً دون بلاء ويريدون جنة دون بذل تلك الدماء، ويصيبهم اليأس عندما تتناثر الدماء على أيدي الطغاة فيقول مخاطباً لهم. .

هذي الدماء على الطريق منائر قدسية الأضواء والألوان
تدعو الغفاة الراقدين تنبهوا وتحرروا من ربقة الادمان
ما جنة الفردوس مأوى ساكت عن حقه... ومنافق وجبان
درب الشهادة لم تزل خطواته مشتاقة لقوافل الفرسان
الرافعين رؤوسهم صوب العلا يرجون دار الروح والريحان[٤١]

القادة يوضحون وعورة الطريق

ما من قائد من قادة الدعوة الاسلامية في القديم والحديث إلا وقد وضح لاتباعه طبيعة الطريق ووعورتها، والنتيجة الطبيعية التي تحدث بعد دعوة الناس وهي البلاء، اقتداء بما جاء في القرآن الكريم وبما وضحه الرسول ﷺ لصحابته الكرام من طبيعة الطريق حتى يكونوا على بينة في بداية الطريق قبل أن يسلكوها معه فيخذلوه في منتصفها، وهاهو قائد الحركة الاسلامية الحديثة في مصر الامام البنا يوضح طبيعة الطريق في فجر الحركة، وأيامها الأولى، وفي رسالته الأولى للرعيل الأول من الاخوان، يقول لهم فيها:

---

(٤٠) طريق الهجرتين ص ٤٩٤ ـ قطر.
(٤١) مشاهد من عالم القهر ٥٢، ٥٣.

«أحب أن أصارحكم أن دعوتكم لا زالت مجهولة عند كثير من الناس ويوم يعرفونها ويدركون مراميها وأهدافها ستلقى منهم خصومة شديدة وعداوة قاسية، وستجدون أمامكم كثيراً من المشقات وسيعترضكم كثير من العقبات، وفي هذا الوقت وحده تكونوا قد بدأتم تسلكون سبيل أصحاب الدعوات. أما الآن فلا زلتم مجهولين ولا زلتم تمهدون للدعوة وتستعدون لما تتطلبه من كفاح وجهاد. سيقف جهل الشعب بحقيقة الاسلام عقبة في طريقكم، وستجدون من أهل التدين ومن العلماء الرسميين من يستغرب فهمكم للاسلام وينكر عليكم جهادكم في سبيله، وسيحقد عليكم الرؤساء والزعماء، وذوو الجاه والسلطان، وستقف في وجهكم كل الحكومات على السواء، وستحاول كل حكومة أن تحد من نشاطكم وأن تضع العراقيل في طريقكم..»[٤٢] ثم يقول: «وستدخلون بذلك ولاشك في دور التجربة والامتحان، فتسجنون وتعتقلون، وتنقلون وتشردون، وتصادر مصالحكم وتعطل أعمالكم وتفتش بيوتكم، وقد يطول بكم مدى هذا الامتحان ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ ولكن الله وعدكم بعد ذلك كله نصرة المجاهدين ومثوبة العاملين المحسنين»[٤٣].

وبعد هذه الكلمات بعشر سنوات تقريبا حدث معظم ماتوقعه الامام البنا لأتباعه، وبعد ذلك ببضع سنوات حدث كل ما توقعه، وما كان كل ذلك ضرباً من ادعاء علم الغيب بقدر ماهو استقراء للآيات وسنن الله في دعوته ودعاته.

وبعد البنا جاء العلامة أبو الأعلى المودودي، رائد الحركة الاسلامية في الهند ليصارح أتباع الحركة في مؤتمر عام عن طبيعة الطريق بكلمات تشبه إلى حد ما الكلمات التي صارح بها البنا أتباعه. إذ قال لهم:

---

(٤٢) (٤٣) مجموعة الرسائل ١٠٨، ١٠٩ رسالة «بين الأمس واليوم».

«إن من طبيعة هذا الطريق أن الانسان ما إن يخطو عليه خطوة، حتى يجد بيئته التي يعيش فيها تناصبه العداء، وتضيق عليه الخناق، فأبواه وإخوانه وأقرباؤه وأصدقاؤه وأولاده وأهل بيته كلهم يعملون وسعهم لابتلائه في إيمانه، بكل ما يملكون من الوسائل، **ولا يظهر في حياته أول أثر من آثار سلوكه لهذا الطريق إلا وإن مهده الذي نشأ فيه متدللاً يترفل في النعيم، ينقلب عليه فراشاً من الأشواك**. هذه هي المرحلة الأولى قد هيأتها لنا المشيئة الإلهية بنفسها لتربية الأفراد على ما يحتاج إليه سلوك هذا الطريق من الصلاح والتقوى والاخلاص والأخلاق القوية الطاهرة»[44] فليس لمتململ ولا متضجر ولا يائس أن يقول بعد هذا التوضيح لطبيعة الطريق، «حتى متى هذا البلاء؟» ويبتعد عن الصف بسبب ذلك، فلابد للنصر إذا تم النضج في فرن البلاء، وثبتت الأقدام في أرض المحنة وهبت رياح الرحمة والنصرة من قبل العزيز الحكيم.

(٤٤) تذكرة دعاة الاسلام ص ٢٧ ط. دار العربية.

٣ - الصبر على وعورة الطريق

استطالة البلاء

إن البلاء(*) بحد ذاته فتنة، يسقط فيه البعض ويثبت الله فيه البعض الآخر، فكيف إذا أضيف للبلاء طول المدة، وتأخر بزوغ الفجر، فإن ذلك بلا شك له تأثير عظيم على كثير من النفوس التي قد تتساقط أثناء الطريق، أو تعتزل السير مع القافلة لطول البلاء، لذا يصيح الامام ابن الجوزي في هذه الفئة محذراً «فإياك إياك أن تستطيل زمان البلاء، وتضجر من كثرة الدعاء، فإنك مبتلى بالبلاء، متعبد بالصبر والدعاء، ولا تيأس من روح الله وإن طال البلاء»(٤٥) فإنه لايستطيل البلاء إلا من تسربت إلى نفسه خيوط اليأس من نصر الله.

تذكر البيعة

والعبد ليس له إلا الصبر على البلاء، ذلك لأنه مملوك لسيده وليس للعبد الاعتراض على السيد إذا ما أراد أن يتصرف في ملكه، فكيف للداعية أن يعترض أو يضجر بسبب طول البلاء من ربه، وهو الذي يدعيّ بأنه باع له نفسه وماله، فكيف ينسى هذه البيعة، وهو لايملك حتى نفسهَ التي طلبها منه رب العزة أن يبيعها له. يقول الامام ابن الجوزي:

«إن نظر أن النفس كالملك له فقد خرجت عن يده من يوم «إن الله اشترى» أفيحسن لمن باع شاة أن يغضب على المشتري إذا ذبحها، أو يتغير قلبه. والله لو قال المالك سبحانه: إنما خلقتكم ليستدل على وجودي، ثم أنا أفنيكم ولا إعادة. لكان يجب على النفوس العارفة به أن تقول سمعاً وطاعة، وأي

(*) ونقصد به «المصيبة بالدين».

(٤٥) صيد الخاطر ٣٦٣.

شيء لنا فينا حتى نتكلم. فكيف وقد وعد بالأجر الجزيل، والخلود في النعيم الذي لاينفد. لكن طريق الوصول تحتاج إلى صبر على المشقة»[٤٦].

غسـيل اليديـن:

وبعد خروجه الأول من سجنه في القاهرة كتب الامام ابن تيمية رسالة إلى أتباعه في دمشق يطمئنهم فيها عن حاله، ويذكرهم ببعض الأصول التي لا يستغني عنها الدعاة، وخاصة فيما يتعلق في البلاء الذي يصيب المؤمن، فيظن البعض أن ذلك بسبب ضعف أو نقص أو أنهم يجزعون بسبب ذلك لجهلهم بما يعكسه البلاء من المصالح للدعوة والداعية، فيذكر برسالته تلك الأمور فيقول: «ان ما يجري من تغليظ أو تخشين على بعض الأصحاب والاخوان ما كان يجري بدمشق، ومما يجري الآن بمصر - فليس ذلك غضاضة ولا نقصا في حق صاحبه، ولا حصل بسبب ذلك تغير منا ولا بغض، بل هو بعد ما عومل به من التغليظ والتخشين أرفع قدرا وأنبه ذكراً، وأحب وأعظم وإنما هذه الأمور هي من مصالح المؤمنين، التي يصلح الله بها بعضهم ببعض، فإن المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى، وقد لاينقلع الوسخ إلا بنوع من الخشونة، لكن ذلك يوجب من النظافة والنعومة، ما نحمد ذلك التخشين»[٤٧] فمن أراد النظافة والنعومة الباطنية والخارجية لكي يلاقي الله بقلب سليم. فعليه أن يصبر على تلك المواد الخشنة والتي لا يزول الوسخ المتراكم على القلوب إلا بها.

السـقوط من القافلـة:

هكذا يضع الأستاذ مصطفى مشهور الصبر شرطاً من شروط الانتساب إلى قافلة المجاهدين، وبغيره يسقط تلقائياً دون أن يدفعه أحد فيقول «فإذا

---

(٤٦) صيد الخاطر ٢٧٦.

(٤٧) العقود الدرية ص ٢٥٩.

لم يحتمل الداعية هذا الإيذاء، ولم يصبر عليه ويحتسبه عند الله، وآثر العافية وبرد العافية على حساب دينه وعلى حساب وقفته مع الحق، ورضى بالقعود عن الجهاد، ومواصلة السير في طريق الدعوة، فإنه يكون بذلك قد أخفق في تخطي هذه العقبة، وحرم نفسه شرف الانتساب إلى قافلة المجاهدين، ويستبدل الله به غيره « وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ »(٤٨).

---

(٤٨) طريق الدعوة (١) ص ٥٥، ٥٦.

٤ - قــلة الســالكـين

لابد لسالك طريق الدعوة أن يعلم بأن من طبيعة هذا الطريق أن يكون سالكوه دائماً هم الأقلون عددا، وتلك حقيقة كثر ذكرها في القرآن الكريم، منها ما ذكر خلال مناقشات إبليس مع رب العزة وذلك عند قوله تعالى على لسان إبليس ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٢﴾[٤٩] فهنا يطلب إبليس من الله أن يرجيء إماتته إلى يوم القيامة لكي يستولي على بني آدم بالاغواء والاضلال ثم يستثني من بني آدم فئة قليلة تتكسر كل إمكانياته بالإغواء أمامهم بسبب أنهم قد التجئوا إلى من هو أقوى منه وهو الله سبحانه وتعالى، ولكن هذه الفئة المتمسكة بالحق، والذي قد استثناهم الشيطان من إضلاله «قليل».

وجاء في سورة (ص) قوله تعالى على لسان نبي الله داود لأحد الخصمين اللذان تسورا عليه المحراب ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[٥٠].
وفي سورة سبأ قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[٥١].

يقول الامام القرطبي «وإن الشكر حقيقته الاعتراف بالنعمة للمنعم، واستعمالها في طاعته، والكفران استعمالها في المعصية. وقليل من يفعل ذلك، لأن الخير أقل من الشر، والطاعة أقل من المعصية، بحسب سابق التقدير»[٥٢].

هذا ما استيقنه ذلك الرجل الصالح في عهد الفاروق رضي الله عنه

---

(٤٩) الاسراء ٦٢.
(٥٠) ص ٢٤.
(٥١) سبأ ١٣.
(٥٢) تفسير القرطبي ٥٣٥٨/٨.

حتى أنه كان يدعو الله أن يكون من الأقلين مما جعل عمر رضي الله عنه يستغرب هذا الدعاء ويسأله «وما الأقلون؟ قال: سمعت الله يقول: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[٥٣] ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ وذكر آيات أخرى فقال عمر: كل أحد أفقه من عمر»[٥٤].

لا تستوحشوا لقلة السالكين

ولعل أحد السالكين لهذا الطريق يستوحش لقلة السالكين معه، فيستشعر بالغربة في بحر من المخالفين لطريقه، فيؤدي به هذا الشعور إلى الذوبان مع مخالفيه قلباً وقالباً خشية أن يبدو بصورة الشاذ في المجتمع، وقضاء على هذه الوحشة التي تؤرقه، فهذا هو إمام الحديث سفيان بن عيينة يناديه هو وأمثاله «اسلكوا سبل الحق ولا تستوحشوا من قلة أهلها»[٥٥].

موازين خاصة

وطالب الآخرة له موازينه الخاصة، والتي تختلف عن موازين عامة الناس، فالناس يستصغرون شأنه لقلة عدد جماعته، ولكنه يرى نفسه كبيراً وكثيراً مع إخوانه لأنه يلجأ إلى ركن متين، ويراهم في عينه هم الأقل قدراً وإن كانوا أكثر عدداً، لأنهم قد اعتصموا بالباطل، والباطل في معتقده زهوقاً. هكذا يصف الإمام ابن القيم السالك لهذا الطريق فهو في نظره «لايكترث بمخالفة الناكبين عنه له فإنهم هم الأقلون قدراً وإن كانوا الأكثرين عدداً، كما قال بعض السلف: عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين، وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق

---

(٥٣) هود ٤٠.

(٥٤) الزهد ـ لأحمد ص ١١٤.

(٥٥) صفة الصفوة ٢/٢٣٥.

بهم . وغض الطرف عمن سواهم . فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا . وإذا صاحوا بك في طريق سيرك ، فلا تلتفت إليهم فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك » (٥٦).

الظبي الجفول

وقد يكون الالتفات في كثير من الأحيان لعواء الباطل سبباً في الانشغال عما هو أهم من أمور الدعوة، وقد يكون سبباً في ضعف سير البعض، لهذا ضرب الامام ابن القيم مثلا للملتفت لنعيق الباطل بالظبي فيقول: **«الظبي أشد سعياً من الكلب، ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه. فيدركه الكلب فيأخذه»**(٥٧) وقد نوه الأستاذ سيد قطب رحمه الله إلى هذه الحقيقة حينما قال:

أخـي فامض لا تلتفت للوراء ... طريـقـك قد خضـبـتـه الـدمـاء
ولا تلتـفـت ههـنـا أو هنـاك ... ولا تتـطلع لغـير الـسـمـاء(٥٧أ)

فالسالك لهذا الطريق المخضب بدماء الأنبياء وحوارييهم والصحابة رضي الله عنهم والشهداء لاينبغي أن يهتم بغير العلم الذي رفع له فشمر له، وإلا فليس في الوقت متسع لتشتيته هنا أو هناك. ثم كيف يتأثر بأقاويل الباطل وادعاءاته من يثق بالطريق الذي يسير فيه.

وسليمان الداراني يضرب مثلًا للواثق في سلوك الطريق إذ يقول **«لو شك الناس كلهم في الحق ما شككت فيه وحدي»**(٥٨) فالقضية العددية لا تغير من حقائق الأمور شيئا ، وإن غيرت فإنما تغير في النفوس المهزوزة الضعيفة، والتي خيراً للدعوة أن تزول عنها.

---

(٥٦) (٥٧) مدارج السالكين ١/٢١، ٢٢.
(٥٧ أ) شعراء الدعوة الاسلامية ٤/٤٦.
(٥٨) البداية والنهاية ١٠/٢٥٧.

ثانيًا: الخلاص من اليأس

* العوامل المؤدية لليأس.
١ - التطبيق الخاطئ للإسلام
٢ - سقوط بعض القيادات
٣ - استمرار المحنة
٤ - قلة الأتباع وكثرة الخصوم
* اليأس وأخلاق المسلمين

ثانياً ــــــــ الخلاص من اليأس

واليأس هو العنصر الهدام في الجماعة المسلمة، وهو الجرثومة التي تخترق أصلاب أفراد الحركة الإسلامية لتورثهم الشلل الحركي وكل ما يتصل به من أمراض. وحتى نقضي على هذه الجرثومة، لابد لنا من تحديد الداء، وهو العوامل المؤدية إلى اليأس، حتى يسهل علينا بعد ذلك تحديداً أدق للدواء، لتعود العافية للأجزاء المشللة، ويمضي الجميع لتحقيق النصر الكامل بإذن الله.

العوامل المؤدية لليأس

(١) التطبيق الخاطيء للاسلام

عندما يئس خصوم الاسلام من محاربته كفكر وكمنهج حياة لجئوا إلى حربه بوسائل خبيثة تختلف عن وسائلهم التقليدية القديمة، ومن هذه الوسائل الحديثة، تسهيل وتشجيع قيام كيانات ترفع اللافتة الاسلامية ولكنها تنحرف في تطبيق الاسلام، كتركيزها على تطبيق الحدود دون باقي الامور التي هي من أصول الحكم الاسلامي. مما يعطي انطباعا سيئا لكل ذي أمل بعودة الأمة إلى الصراط المستقيم. وهنا يتسرب اليأس إلى نفوس البعض من إمكانية عودة الإسلام الحقيقي في الوقت الحاضر.

(٢) سقوط بعض القيادات

قيادات العمل الاسلامي مهما بلغوا من الصلاح فهم من البشر، وما داموا بشراً فهم غير معصومين من الزلل والخطأ، وحتى من السقوط على أعقابهم، فلا بد لأفراد الحركة الإسلامية أن يدركوا قضيتين مهمتين، الأولى هي أن قادة العمل الإسلامي ليسوا بمعصومين، وماهم بملائكة مبرئين من الخطأ والعصيان، والقضية الثانية هي التعلق بالحق وصاحبه وعدم التعلق بالأفراد. لاينكر أحد مالهذا العامل من أثر عميق في خلق نفوس يائسة، خاصة عندما ترى بعض قدواتها التي عقدت عليها الأمل تنهار في وسط الطريق، وهي التي اهتدت على أيديها. ومع أهمية هذا العامل لخلق اليأس في نفوس البعض إلا أن الأمر يزداد سوءاً إذا لم نأخذ بعين الاعتبار تلك القضيتين فما دام الانسان حيا فلا يؤمن عليه من الفتنة، حتى أن الرسول ﷺ وهو المعصوم، كان يكثر من قوله «يامقلب القلوب ثبت قلبي على

دينك»[٥٩] ولهذا السبب كان الصحابي الجليل ابن مسعود يقول «من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات - يعني الصحابة - فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة»[٦٠].

التعــلق بالأفــراد

إن من بديهيات العمل الاسلامي أن يتعلق أفراد الحركة الاسلامية بالحق وليس بحملته، ماداموا غير معصومين، ويكون الاقتداء بهم ماداموا على الحق ثابتين، أما إذا زاغوا عنه فلا اقتداء ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وهذا الأمر يقتضي عدم الالتفات عن الحق بسبب أخطاء القادة، فإذا ما حدث شيء من الابتعاد عن الحق بسبب زلات بعض القادة، فإنما يدل ذلك على عدم الاخلاص في طلب الحق، إذ أن المخلص لايرنو لشيء سوى الحق، ولا يبعده عنه أمرا من أمور الدنيا، وكان الإمام سفيان بن عيينة يطلق على مثل هؤلاء الذين يجعلون زلات القدوات سبباً بالابتعاد عن الحق «صفة الحماقة» فقد لاحظ أحدهم منه خشونة وشدة على طلبته فتجرأ وسأله «إن قومــاً يأتـونك من أقطار الأرض، تغضب عليهم، يوشك أن يذهبوا ويتركوك»[٦١] فرد عليه «هم حمقى - إذن - مثلك أن يتركوا ما ينفعهم لسوء خلقي»[٦٢] وحاشا سفيان أن يكون سيء الخلق، ولكنه الافتراض الذي أراد سفيان أن يفهمه السائل، وهي القاعدة التي عجب سفيان ألا يفقهها ذلك السائل، وهي «التعلق بالحق وترك التعلق بالأفراد» فالقائد والقدوة لايعني أبداً أنه هو الحق وهو الدعوة، وفرق أن يوجد عيب أو زلل في القائد، أو أن يوجد الزلل والخطأ في الحق.

---

(٥٩) رواه الترمذي وصححه الألباني ص ج ص ٧٨٦٤.
(٦٠) فتاوي ابن تيمية ١٣٧/٤، ١٣٨.
(٦١) (٦٢) آداب الشافعي ص ٦.

القفـال والقـروي

إنه من واجب المربين ومن هم في موضع القدوة أن يربوا أتباعهم على التعلق بالله وعدم التعلق بالأفراد، فهذا هو القاضي الحسين يروي عن مفسر الحديث الشيخ القفال إذ يقول: «كنت عند القفال فأتاه رجل قروي وشكا إليه أن حماره أخذه بعض أصحاب السلطان، فقال له القفال: اذهب فاغتسل وادخل المسجد، وصل ركعتين، واسأل الله تعالى أن يرد عليك حمارك فأعاد عليه القروي كلامه، فأعاد القفال، فذهب القروي ففعل ما أمره به وكان القفال قد بعث من يرد حماره، فلما فرغ من صلاته رد الحمار فلما رآه على باب المسجد خرج وقال: الحمد لله الذي رد عليّ حماري، فلما انصرف سئل القفال عن ذلك فقال: أردت أن أحفظ دينه كي يحمد الله تعالى»(٦٣) فلو أنه أتى بحماره دون أن يأمره بالصلاة ودعوة الله، لاعتقد ذلك القروي البسيط بأن الحول والقوة بيد القفال وليس بيد الله، ولحمد القفال ولم يحمد الله، فهذه لفتة طيبة، وتصرف حكيم لايفطن له إلا من هم بمستوى القدوات.

البنا يعالج التعلق

وفي عصرنا الحديث، وخاصة في بداية نشأة الحركة الاسلامية في مصر بقيادة الامام البنا، ظهرت بعض بوادر التعلق من البعض، ولكن الامام البنا لم يمهلها أن تنمو، وقضى عليها في مهدها ليعلق أفراد الحركة الجدد بالله وحده، وليس بالأفراد، ويروي عنه تلميذه البار الأخ الفاضل عباس السيسي موقفين في ذلك، الأول كان في مؤتمر الطلاب للاخوان المسلمين، والذي انعقد بدار جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة عام ١٩٣٨، يقول الأخ السيسي «وقف حسن البنا يخطب إذ تحمس أحد الأخوة من الطلاب فهتف بحياة

(٦٣) طبقات الشافعية ١/١٩٩.

حسن البنا ـ ومع أنه لم يردد الحاضرون هذا الهتاف، إلا أن فضيلته وقف صامتاً لا يتحرك برهة، فاتجهت إليه الأنظار في تطلع.. ثم بدأ حديثه في غضب فقال: **أيها الاخوان إن اليوم الذي يهتف في دعوتنا بأشخاص لن يكون، ولن يأتي أبدا، إن دعوتنا إسلامية قامت على عقيدة التوحيد، فلن نحيد عنها.**

أيها الاخوان لاتنسوا في غمرة الحماس الأصول التي آمنا وهتفنا بها «الرسول قدوتنا» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾(٦٤).

والموقف الثاني حدث في مدينة رشيد حين أقام الاخوان حفلاً بإحدى المناسبات الدينية ، يقول الأخ السيسي «وحين جاء أحد المتكلمين في الحفل، وقد كان من المتحمسين لنشر دعوة الإخوان ، قام متحدثاً إلى الناس فقال: إن مثلنا الآن من فضيلة الاستاذ المرشد، وهو يشير إليه، كمثل رسول الله ﷺ بين أصحابه وما كاد الأستاذ المتحدث ينتهي من هذه العبارة حتى قفز الامام الشهيد إلى المنصة ثم اتجه إلى الناس قائلاً ـ أيها الأخوة معذرة إذا كان الأستاذ المتحدث قد خانه التعبير، فأين نحن من تلامذة رسول الله ﷺ ثم نزل إلى مكانه ولم يستطع الاستاذ المتحدث إكمال الحديث كما بدأ»(٦٥) هذه هي المواقف الرجولية التي تقضي على مثل هذه الآفة، وليس الركون والاستمتاع بكلمات الاطراء، فإذا لم يرى التابع ردة فعل لتصرفه الخاطيء زاد تعلقه بالمتبوع، حتى إذا سقط ذلك المتبوع يوماً من الأيام سقط ذلك التابع معه، أو أصابه اليأس من انتصار هذه الدعوة، وكلتا النتيجتين خطر على مسيرة الدعوة.

---

(٦٤) حسن البنا مواقف في الدعوة والتربية ص ٨١، ٨٢.
(٦٥) حسن البنا مواقف في الدعوة والتربية ص ٨٢.

(٣) استمرار المحنة

وهو عامل من العوامل المهمة لنشوء اليأس عند البعض، وينشأ عادة من ضعف اليقين بالنصر وهزيمة الباطل[٦٦]

(٤) قلة الأتباع وكثرة الخصوم[٦٧]

وهذا العامل ناشيء من عدم تصور واضح لطبيعة الطريق، مما يجعله يستوحش لقلة الأتباع وكثرة الخصوم.

تجمد النشاط

إن المحرك الرئيسي لنشاط أفراد الحركة الاسلامية هو الأمل بالعون من الله والنصر، وسيطرة الاسلام على باقي الأديان والأفكار، وحينما يستولي اليأس، أو يتسرب إلى النفوس فإن النشاط والحركة والهمة تكون في خطر التجمد الكامل، لأنه سيشعر بأنه يتحرك دون فائدة، يقول الدكتور خالص جلبي «إن الدعوات حين يستولي على عناصرها اليأس من جدوى الانتشار، فإن نشاطها يتوقف، وعلى قدر الأمل في جدوى انتشار الدعوة تتحرك عناصرها ولكن مجرد هذا الشعور أيضا خطر، لأن اليقين بأن الدعوة تنتشر أي أن نكون مفعمين ومترعين بالأمل فقط لن يكون كافيا مالم يختلط بشعور آخر واضح محدد، وهو مثلا الخوف من التفريط في الأمانة.. أو الخوف من الزوال. والقرآن قد أشار إلى هذه الفكرة بحديها، فمن جهة عزى رسول الله حتى لا يحزن فييأس من عدم قبول الدعوة فقال تعالى: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ وقال ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ومن جهة أخرى شدد في التبليغ قائلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾[٦٨].

---

(٦٦) راجع فصل وعورة الطريق - كما سنفصل في هذا الأمر في فصل هزيمة الباطل.

(٦٧) راجع فصل قلة السالكين.

(٦٨) ظاهرة المحنة ص ٣٣.

اليـــأس وأخــلاق المسلمين

المشكلة التي يقع فيها البعض والتى تتصاحب مع استمرار المحنة، وشدتها، وإعراض الكثير عنها هي اليأس من صلاح الأمة، وعودتها إلى ربها، وينسى في خضم هذه الفتن ينابيع الأمل والتي تبدو ظاهرة في الكثير من المسلمين، وينسى وعد الله بالنصر، فتراه مجهم الوجه، عاقد الحاجبين، قد استولى عليه اليأس حتى بدى واضحاً في قسمات وجهه وفي ثنايا كلامه، رافعاً راية «لو أسلم حمار ابن الخطاب لما أسلم عمر» إلى أمثال هؤلاء يقول الإمام البنا «لا تيأسوا فليس اليأس من اخلاق المسلمين، وحقائق اليوم أحلام الأمس، وأحلام اليوم حقائق الغد. ولا زال في الوقت متسع، ولا زالت عناصر السلامة قوية عظيمة في نفوس شعوبنا المؤمنة رغم طغيان مظاهر الفساد. والضعيف لايظل ضعيفاً طول حياته والقوي لا تدوم قوته أبد الآبدين ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[69].

فليمدد بســـبب

إنها النصيحة التي نصح بها يعقوب بنيه ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[70] فالقنوط صفةمن صفات الكفر

(٦٩) الرسائل ١٥٢ ط المؤسسة الاسلامية.
(٧٠) يوسف ٨٧.

والعياذ بالله، والكفر هو التغطية، فالكافر من تغطت فطرته فما أصبح يرى الأمور كما هي بل يراها مقلوبة لانتكاس فطرته، فالخالق الذي من صفاته العدل لايمكن أن يرضى ببقاء الظلم دون أن يأذن بذهابه بمن شاء وكيفما يشاء، ويأخذ الحق لأصحاب الحق، وان من سنن الله في كونه بأن يعقب الظلمة النور، فمن ظن غير ذلك، ويأس من انجلاء الظلام فكأنه اتصف بصفات الكفر والعياذ بالله. قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ ﴾(٧١).

يقول ابن كثير «من كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة»(٧٢) فهو تحد من الله لكل عدو لهذه الدعوة، ولكل متردد، ومشكك، ومثبط، ولكل يائس بين الصفوف، بأنه سينصر دعوته مهما بدت الظروف في تقدير البشر أنها صعبة، كما أنها مخاطبة لتلك النفوس التي تيأس إذا اشتد البلاء، وتغتر بتورمات الباطل التي تحمل القيح والقذر، وتحسبها أنها عافية، يقول سيد رحمه الله «والذي ييأس في الضر من عون الله يفقد كل نافذة مضيئة، وكل نسمة رخية، وكل رجاء في الفرج، ويستبد به الضيق، ويثقل على صدره الكرب، فيزيد هذا كله من وقع الكرب والبلاء، فمن كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بحبل إلى السماء يتعلق به أويختنق. ثم ليقطع الحبل فيسقط أو ليقطع النفس فيختنق... ثم لينظر هل ينقذه تدبيره ذاك مما يغيظه!!

ألا إنه لا سبيل إلى احتمال البلاء إلا بالرجاء في نصر الله. ولا سبيل إلى الفرج إلا بالتوجه إلى الله. ولا سبيل إلى الاستعلاء على الضر، والكفاح

---

(٧١) الحج ١٥.
(٧٢) تفسير ابن كثير ٣/٢١٠.

للخلاص إلا بالاستعانة بالله. وكل حركة يائسة لاثمرة لها ولا نتيجة إلا زيادة الكرب، ومضاعفة الشعور به، والعجز عن دفعه بغير عون الله. فليستبق المكروب تلك النافذة المضيئة التي تنسم عليه من روح الله»[٧٣].

(٧٣) الظلال ٤/٢٤١٣/٢٤١٤.

ثالثا : هزيمة الباطل

* ستغلبون وتحشرون
* الباطل الزهوق
* الفجر القادم

ثالثاً ـــــ هزيمة الباطل

ستغلبون وتحشرون

وثالث مقومات الثقة بالنصر الاستيقان من هزيمة الباطل، وهي عقيدة لابد أن يستحضرها دعاة الحركة الاسلامية، ذلك أن هزيمة الباطل وجيوشه حتمية في سنن الله تعالى، فلا يمكن أن يمكن لأهل الباطل، وتستقر الحياة دون هيمنة منهج الله في الحياة. ومهما طالت حياة الباطل، فإنها جولة ما تلبث أن تنقضي وتهلك، ويكون بهلاكها عبرة للآخرين. وكان الامام ابن الجوزي يصبر بعض أتباعه على احتمال انتفاش أهل الباطل، وتقليدهم المناصب، ومراكز التأثير في الدولة فيقول لهم «**اصبروا فلا بد للشبهات أن ترفع رأسها في بعض الأوقات، وإن كانت مدموغة، وللباطل جولة وللحق صولة، والدجالون كثير، ولا يخلو بلد ممن يضرب البهرج على مثل سكة السلطان**»(٧٤).

إن استقرار حقيقة زوال الظلم والظلام في نفوس حملة راية الحق في كل زمان ضرورة لإحداث التغيير، فلقد تربى الرعيل الأول على آيات كثيرة تغرس في نفوسهم «حتمية زوال الباطل» وهي الكلمات التي أمر الله رسوله ﷺ أن يصدع بها في وجوه الطغاة وأتباعهم ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾(٧٥) حقيقة لم تتزعزع بسبب شدة البطش، ولا لطول جولة الباطل، ولا دموية أهله وشراستهم، ولا لكثرة العدة والعتاد، ولا حتى لكثرة أتباع الباطل، بل بسبب أن الباطل بذاته، ومن تركيبته الشاذة بناء منهدم، إذ يقول تعالى ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ

---

(٧٤) صيد الخاطر ص ١٧٠ الطنطاويان.
(٧٥) آل عمران ١٢.

زَهُوقًا﴾[٧٦].

الباطــل الزهــوق

يقول الامام القرطبي «وزهق الباطل - بطل الباطل، ومن هذا زهوق النفس وهو بطلانها. يقال زهقت نفسه تزهق زهوقاً وأزهقتها «إن الباطل كان زهوقا» أي لا بقاء له، والحق الذي يثبت»[٧٧].

فالباطل زهوق، وإن بدا حياً تدب فيه الحياة، لكنها حياة مزيفة مصنوعة، ما تلبث أن تتوقف إذا انجلت الزينة، والأصباغ ويبدا اللون الحقيقي الشاحب، الدال على الموت المؤكد لهذا الباطل. يقول الاستاذ سيد قطب **«إن الباطل كان زهوقا - لأنه لايحمل عناصر البقاء في ذاته إنما يستمد حياته الموقوتة من عوامل خارجية واسناد غير طبيعية، فإذا تخلخلت تلك العوامل، ووهت هذه الاسناد تهاوى وانهار. فأما الحق فمن ذاته يستمد عناصر وجوده.. وقد تقف ضده الأهواء، وتقف ضده الظروف، ويقف ضده السلطان.. ولكن ثباته واطمئنانه يجعل له العقبى ويكفل له البقاء، لأنه من عند الله الذي جعل «الحق» من أسمائه وهو الحي الباقي الذي لايزول»**[٧٨].

الفجــر القـادم

وعندما دخل سيد قطب رحمه الله هو ورفاقه السجن الحربي بسبب كلمة الحق، ولاقى هو وصحبه من التعذيب ما لاقى، أراد أن يجدد حقيقة «زوال الباطل» في نفوس أصحابه الذين ربما تزعزعت في نفوس بعضهم هذه الحقيقة لشدة البلاء الذي أصابهم فصاح صيحة الواثق..

---

(٧٦) الاسراء ٨١.

(٧٧) تفسير القرطبي ١٣١/٦.

(٧٨) الظلال ٢٢٤٧/٤.

«أخـي ستـبـيـد جيـوش الـظلام ويشرق في الـكـون فجـر جديـد
فأطـلق لروحـك إشراقـهـا ترى المـجـد يرمقـنـا من بعيـد»[79]

إن الغيم الأسود الذي غطى بلادنا لابد أن ينجلي، وإن الليل الحالك لابد أن يزول، وإن إيماننا بذاتية الهزيمة المتأصلة في الباطل وحتمية طلوع الفجر هي التي تدفعنا أن ننشد مع وليد الأعظمي..

«مهما تمطى ليلنا الأسود
مهما استبد الظالم «السيد»
مهما عتا الأقزام والأعبـد
ولوحوا بالقيـد أو هددوا
عن نصرة الاسلام هل نقعد
كلا. سنبـقى دائمـاً ننشد
بفجره لابد أن يأتـي الغد»[80]

(79) الكفاح الاسلامي الاردنية ـ العدد ٢٩.
(80) أغاني المعركة ـ فجر الغد ص ٧٦.

رابعًا: الاستيقان من النصر

* الاستيقان بالاستخلاف
* شرط الاستخلاف
* الاستيقان من التمكين
* البشارة بالفتح

رابعاً ـ الاستيقان من النصر

تثبيت القلوب

يقول تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾(٨١)

يقول الحافظ ابن كثير «أي قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لايخالف ولا يمانع ولا يبدل بأن النصرة له، ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة»(٨٢). ويقول الشيخ السعدي «وهذا وعد لايخلف، ولايغير، فإنه من الصادق القوي العزيز الذي لايعجزه شيء يريده»(٨٣).

ويقول تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾(٨٤).

هذه الآيات وغيرها تأتي لتثبيت قلوب المؤمنين، وتغرس فيهم الرجاء بالنصر، حتى يصلوا في ذلك إلى درجة اليقين الذي لاشك فيه، بأن النصر قادم لامحالة يقول سيد قطب «قد يعد الله المسلمين الغلب لتثبيت قلوبهم، وإطلاقها من عوائق الواقع الحاضر أمامهم ـ وهي عوائق ساحقة في أحيان كثيرة ـ فإذا استيقنوا العاقبة قويت قلوبهم على اجتياز المحنة، وتخطي العقبة، والطمع في أن يتحقق على أيديهم وعد الله للأمة المسلمة، فيكون لهم ثواب الجهاد، وثواب التمكين لدين الله، وثواب النتائج المترتبة على هذا التمكين»(٨٥).

---

(٨١) المجادلة ٢١.
(٨٢) تفسير ابن كثير ٣٢٩/٤.
(٨٣) تفسير كلام المنان ٣٢٢/٧.
(٨٤) المائدة ٥٦.
(٨٥) الظلال ٩٢٢/٢.

إني مغلوب فانتصر

يقول تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾(٨٦) فالله ينصر فرداً واحداً إذاما بذل كل ما لديه من طاقة وجهد وسبب، وتوجه بعدها لله يطلب النصرة، فكيف بالجموع المؤمنة التي تطلب النصرة إذا ما بذلت كل ما بوسعها وطاقتها من أجل نصرة دين الله، فالله الذي غمر الأرض بالطوفان من أجل فرد مؤمن لجأ إليه بعدما بذل كل ما بوسعه، لقادر على تحطيم كل أنواع الطغيان من أجل الفئة المؤمنة، وهذه عقيدة يجب أن تستقر في نفوس أبناء الحركة الاسلامية.

لا مبدل لكلماته

يقول تعالى ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾(٨٧).

يقول ابن كثير: «هذه تسلية للنبي ﷺ، وتعزية له فيمن كذبه من قومه وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعد له بالنصر كما نصروا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة بعدما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ ثم جاءهم النصر في الدنيا كما لهم النصر في الآخرة. ولهذا قال ﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾ أي التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين(٨٨).

إن الناظر للحرب الشرسة التي يواجه بها أصحاب الحق من أهل الباطل، من حملات إعلامية، وتضييق في الرزق، وتشويه للسمعة، واضطهاد

---

(٨٦) القمر ١٠.
(٨٧) الأنعام ٣٤.
(٨٨) تفسير ابن كثير ٢/ ١٣٠.

وملاحقة، وتصفية في كثير من الأحيان، حتى غدا المتدين هو الذي يتحرى عنه بدقة في نقاط الحدود بدلا من المعربد المحشش الخؤون، وأصبح الآخر هو الثقة بمقارنته بصاحب الحق. إن هذا الوضع يشكل ضغوطاً نفسية لصاحب الحق تجعله يقترب من اليأس من النصر لطول ليل الظالمين، والذي يبدو من الوهلة الأولى ألا نهاية له، فتأتي هذه الآيات كالبلسم الشافي، وكالنور يشع في عتمة ليل الطغاة، مؤكدة بأن النصر آت لا ريب فيه.. يقول سيد قطب «إن موكب الدعوة إلى الله موغل في القدم، ضارب في شعاب الزمن، ماض في الطريق اللاحب، ماضٍ في الخط الواصب.. مستقيم الخطى، ثابت الأقدام. يعترض طريقه المجرمون من كل قبيل، ويقاومه التابعون من الضالين والمتبوعين، ويصيب الأذى من يصيب من الدعاة، وتسيل الدماء وتتمزق الأشلاء.. والموكب في طريقه لاينحني ولا ينثني ولا ينكص ولا يحيد.. والعاقبة هي العاقبة، مهما طال الزمن، ومهما طال الطريق.. إن نصر الله دائماً في نهاية الطريق»[٨٩] وإذا كان لكل شيء مظهر يستدل به عليه، فإن من أبرز ظواهر الاستيقان بالنصر هو الاستيقان بالاستخلاف، والاستيقان بالتمكين.

(٨٩) الظلال ٢/١٠٧٧.

الاستيقان بالاستخلاف

يقول تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾(٩٠) كان فرعون قد هدد بني إسرائيل بعد إيمانهم بموسى عليه السلام بتقطيع الأيدي والأرجل، والصلب، يقول الامام الشوكاني: «لما بلغ موسى ما قاله فرعون أمر قومه بالاستعانة بالله والصبر على المحنة، ثم أخبرهم (أن الأرض) يعني أرض مصر (لله يورثها من يشاء من عباده) أو جنس الأرض، وهو وعد من موسى لقومه بالنصر على فرعون وقومه»(٩١).

ولكن موسى عليه السلام يواجه هنا نفوسا يائسة، غير قادرة على مواصلة الطريق ولا تعرف طبيعة الطريق الموصل للنصر، ولا سنن الاستخلاف في الأرض، وهو يريد أن يغير هذه النفوس العنيدة، المكابرة، التي أحبت حياة الذل والمهانة، والتي لاتعرف للأمل والرجاء طريقاً، إن هذا الصنف من الناس لاشك أنه يعوق الوصول للنصر ولا يتم على يديه، حتى تتغير موازينه، وتترفع نفوسهم عن طينة الأرض، وعتمة الطين، لتسمو في العلياء، ولتثق برب السماء.

يقول الأستاذ سيد قطب: «إنه مشهد النبي موسى ـ عليه السلام ـ مع قومه يحدثهم بقلب النبي ولغته، ومعرفته بحقيقة ربه، وبسنته وقدره، فيوصيهم باحتمال الفتنة، والصبر على البلية، والاستعانة بالله عليها. ويعرفهم بحقيقة الواقع الكوني. فالأرض لله يورثها من يشاء من عباده. والعاقبة لمن

(٩٠) الأعراف ١٢٨، ١٢٩.
(٩١) فتح القدير ٢/٢٣٥.

يتقون الله ولا يخشون أحدا سواه.. فإذا شكوا إليه أن هذا العذاب الذي يحل بهم قد حل بهم من قبل أن يأتيهم، وهو يحل بهم كذلك بعد ما جاءهم، حيث لا تبدو له نهاية، ولا يلوح له آخر! أعلن لهم رجاءه في ربه أن يهلك عدوهم، ويستخلفهم في الأرض ليبتليهم في أمانة الخلافة»[٩٢] وهي ليست مهمة الرسل فقط، بل هي مهمة كل فرد في الحركة الاسلامية أن يثبت النفوس المتزلزلة، ويطمئن القلوب اليائسة الغافلة بهذه الحقائق، وبتلك السنن التي وضعها الله فلا ينتصرون إلا بها.

(٩٢) الظلال ٣/١٣٥٥.

الاستخلاف وعد من الله

يقول تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾(٩٣).

إن الحالة الأمنية التي عاش به الرعيل الأول سن الصحابة رضي الله عنهم في مكة، وبداية أيامهم في المدينة بعد الهجرة يصفها أبو العالية تلميذ الصحابي الجليل أبي بن كعب فيقول «كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده، وعبادته وحده لاشريك له، سراً وهم خائفون لايؤمرون بالقتال، حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة، فقدموا المدينة، فأمرهم الله بالقتال، وكانوا بها خائفين، يمسون بالسلاح، ويصبحون بالسلاح، فغيروا بذلك ما شاء الله، ثم ان رجلاً من أصحابه قال: يارسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا، أما يأتي علينا يوم نأمن فيه، ونضع فيه السلاح؟ فقال رسول الله ﷺ «لن تصبروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبيا ليست فيه حديدة» فأنزل الله هذه الآية الكريمة ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ. . .﴾(٩٤).

وليس الوعد بالخلافة قاصراً على الخلفاء الأربعة ومن بعدهم، بل هي شاملة لكل الأمة، متى قامت بالأسباب التي تهيئها لحمل الأمانة، يقول الإمام القرطبي «وقال قوم هذا وعد لجميع الأمة في ملك الأرض كلها تحت

---

(٩٣) النور ٥٥.

(٩٤) أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه، وصححه محمد الرفاعى ـ تيسير العلي القدير ٣/٢٩٤.

كلمة الاسلام، كما قال عليه الصلاة والسلام «زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها»(٩٥) واختار هذا القول ابن عطية في تفسيره حيث قال: والصحيح في الآية أنها في استخلاف الجمهور، واستخلافهم هو أن يملكهم البلاد، ويجعلهم أهلها»(٩٦) ثم يقول القرطبي: «قلت هذه الحال لم تختص بالخلفاء الأربعة رضي الله عنهم حتى يخصوا بها من عموم الآية، بل شاركهم في ذلك جميع المهاجرين بل وغيرهم»(٩٧) ثم يقول «فصح أن الآية عامة لأمة محمد ﷺ، غير مخصوصة، إذ التخصيص لايكون إلا بخبر ممن يجب له التسليم، ومن الأصل المعلوم التمسك بالعموم»(٩٨).

شـــــرط الاســـتخلاف

إن وعد الله بالاستخلاف لايتحقق إلا بشرط لازم، وهو «الإيمان والعمل» فما حقيقة هذا الايمان، وذلك العمل الصالح المتعلق به، يقول سيد قطب رحمه الله «إن حقيقة الايمان التي يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الانساني كله، وتوجه النشاط الانساني كله، فما تكاد تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل ونشاط وبناء وإنشاء موجه كله إلى الله، لايبتغي به صاحبه إلا وجه الله، وهي طاعة لله واستسلام لأمره في الصغيرة والكبيرة، لايبقى معها هوى في النفس، ولا شهوة في القلب، ولا ميل فى الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول الله ﷺ من عند الله.

فهو الايمان الذي يستغرق الانسان كله، بخواطر نفسه، وخلجات قلبه وأشواق روحه، وميول فطرته، وحركات جسمه، ولفتات جوارحه، وسلوكه

(٩٥) رواية مسلم «إن الله تعالى زوى لي الأرض...» صحيح مسلم ٢٨٨٩.
(٩٦)، (٩٧)، (٩٨) تفسير القرطبي ٤٦٩٠/٧.

مع ربه في أهله، ومع الناس جمعا. يتوجه بهذا كله إلى الله.. يتمثل هذا في قول الله سبحانه في الآية نفسها تعليلاً للاستخلاف والتمكين والأمن ﴿يعبدونني لايشركون بي شيئا﴾ والشرك مداخل وألوان، والتوجه إلى غير الله بعمل أو شعور هو لون من ألوان الشرك بالله. ذلك الايمان منهج حياة كامل، يتضمن كل ما أمر الله به، ويدخل فيها أمر الله به توفير الأسباب، وإعداد العدة، والأخذ بالوسائل، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض.. أمانة الاستخلاف»(٩٩).

فليس لفرد ولا لجماعة أن تحدد وقتا يستخلفها الله فيه، فهذا الوعد ليس راجعاً للتقديرات البشرية، بل هو راجع لخالق البشر متى ما رأى تحقق الشرط الذي اشترطه للاستخلاف في الذين يسعون لإعادة راية الاسلام. ذلك لأن الخلافة ليست هدفاً بحد ذاتها، بل هي وسيلة كبرى لتبليغ دين الله، وحمايته وحماية أتباعه لتحقيق الهدف الحقيقي وهو عبادة الله وحده لاشريك له ﴿يعبدونني لايشركون بي شيئا﴾.

مفهوم الاستخلاف عند سيد

يقول سيد رحمه الله «إنها ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الاصلاح والتعمير والبناء، وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه، وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض، اللائق بخليقة أكرمها الله.

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والاصلاح، لا على الهدم والافساد. وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة، لا على الظلم والقهر. وقدرة

(٩٩) الظلال ٢٥٢٨/٤.

على الارتفـاع بالنفس البشريـة والنظام البشري، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان!.

وهذا الاستخلاف هو الذي وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات وعدهم الله أن يستخلفهم في الأرض ـ كما استخلف المؤمنين الصالحين قبلهم ـ ليحققوا النهج الذي أراده الله، ويقرروا العدل الذي أراده الله، ويسيروا بالبشرية خطوات في طريق الكمال المقدر لها يوم أنشأها الله.. فأما الذين يملكون فيفسـدون في الأرض، وينشرون فيها البغي والجور، وينحدرون بها إلى مدارج الحيوان.. فهؤلاء ليسوا مستخلفين في الأرض، إنما هم مبتلون بما هم فيه، أو مبتلى بهم غيرهم، ممن يسلطون عليهم لحكمة يقدرها الله»(١٠٠).

---

(١٠٠) الظلال ٤/٢٥٢٩.

والتمكين منزلة تأتي بعد الاستخلاف، فعندما تستقر الأمور، وتثبت الأقدام يأتي التمكين لتستمر عملية الاستخلاف، فبغير التمكين يظل الاستخلاف مهزوزا متارجحاً حتى يحدث التمكين. يقول تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾[101].

يقول صاحب الظلال «فهؤلاء المستضعفون الذين يتصرف الطاغية في شأنهم كما يريد له هواه البشع النكير، فيذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويسومهم سوء العذاب والنكال. وهو مع ذلك يحذرهم ويخافهم على نفسه وملكه، فيبث عليهم العيون والأرصاد، ويتعقب نسلهم من الذكور فيسلمهم إلى الشفار كالجزار! هؤلاء المستضعفون يريد الله أن يمن عليهم بهباته من غير تحديد، وأن يجعلهم أئمة وقادة لاعبيداً ولا تابعين، وأن يورثهم الأرض المباركة (التي أعطاهم إياها عندما استحقوها بعد ذلك بالإيمان والصلاح) وأن يمكن لهم فيها فيجعلهم أقوياء راسخي الأقدام مطمئنين. وأن يحقق ما يحذره فرعون وهامان وجنودهما وما يتخذون الحيطة دونه، وهم لا يشعرون!»[102].

إن الجو الذي تعيشه الحركة الاسلامية الآن ليشبه في كثير من جزيئياته الجو الذي عاش فيه أتباع موسى عليه السلام مع الطاغية فرعون، فإذا كان فرعون قد ابتكر طريقة شيطانية للحفاظ على عرشه من الزوال، أو الاهتزاز بأن قام بقتل كل مولود ذكر، وأبقى النساء من بني اسرائيل، فإن فراعنة هذا الزمان قد فاقوا فرعون موسى بما أحدثوه من وسائل وابتكارات للحفاظ على

(١٠١) القصص ٥، ٦.
(١٠٢) الظلال ٢٦٧٨/٥.

عروشهم، فإنهم لم يكتفوا بإبادة رجال الحركة الاسلامية إنما تعدوا ذلك حتى إلى الأقرباء والأصدقاء، ولكل من له صلة بهـم من ذكر أو أنثى، ولكن الذي أنشأ موسى عليه السلام في أحضان الطاغية لكي يريه ما كان يحذر هو وزبانيته، ثم مكن له ولأتباعه في الأرض، قادر على أن يمكن لكل من يدعو بدعوته ويثبت عليها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، إنه لايخلف الميعاد. وبعد التمكين والاستقرار لأتباع الحق يكون الفتح الذي هو ثمرة للتمكين.

البشـارة بفتح أرض الفاتيكان

«عن أبي قبيل قال: كنا عند عبدالله بن عمرو بن العاص، وسئل أي المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبدالله بصندوق له حلق، قال: فأخرج منه كتاباً قال: فقال عبدالله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولاً قسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: مدينة هرقل تفتح أولاً: يعني قسطنطينية.

ولقد حقق الله نبوءة الرسول ﷺ بعد ثمانمائة عام ففتحت القسطنطينية على يد القائد الإسلامي محمد الفاتح، وسيتحقق الفتح الآخر لرومية وهي روما الآن والتي فيها مقر الصليبية العالمية «دولة الفاتيكان» بإذن الله، والذي يبدو أن هذا الفتح القادم لروما لايتحقق إلا في ظل دولة موحدة، وهي دولة الخلافة، والتي جاءت البشارة بها في حديث آخر أخرجه الإمام أحمد إذ يقول فيه الرسول ﷺ: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ماشاء

---

(١٠٣) رواه أحمد ١٧٦/٢ وصححه الألباني ـ الأحاديث الصحيحة ٤..

الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكت»(١٠٤) وأحسب أن الفترة التي تعيشها الحركة الاسلامية في الوقت الحالي هي الملك الجبري. وهي الحكومات التي تأتي بالحديد والنار رغماً عن أنوف الشعوب دون بيعة عامة أو خاصة، وهي غالباً الحكومات العسكرية، فكأن حكمهم جاء بالاجبار، لذلك أطلق عليه النبي ﷺ «ملكاً جبرياً» وهي بشارة بقرب الخلافة الراشدة والتي ستعود بإذن الله إذا انجلت فترة الحكم الجبري، وهذا يزيد من استيقان أفراد الحركة الاسلامية بالنصر والاستخلاف والتمكين والفتح إن شاء الله.

---

(١٠٤) رواه أحمد ٢٧٣/٤ وصححه الألباني ـ الأحاديث الصحيحة ٥.

خامسًا: بين العمل والنتيجة

* البنا يبني أتباعه
* سيد وأصحاب الأخدود
* من كانت بيده فسيلة

خامساً ـــــــــ بين العمل والنتيجة

قد ييأس البعض عندما لايرون نتيجة سريعة لما يقومون به من جهد في هذه الدعوة المباركة، فهم يرون المجتمع الذي يعملون فيه ينزع الحياء يوما بعد يوم بخطى سريعة مخيفة، تجعل هذا البعض ييأس من جدوى العمل مع هؤلاء، إن هذا الصنف من الدعاة عندما يقومون بذلك ينسون حقيقة هامة، وهي أنه كعبد لله ليس مطلوباً منه أكثر من العمل، الذي يتضمن التبليغ، ولكن الهداية ليست مطلوبة منه، فضلا عن أنه لايملكها ابتداء*. وهذا لايعني عدم الاهتمام بنتيجة العمل، أو استيلاء شعور بعدم جدوى انتشار الفكرة، كما أنه لايعني أيضا عدم الاستيقان بالنصر، فإن الثقة بالنصر هي الدافع للعمل، ولكننا نقصد بالنتيجة هداية الناس، والتي يتم على إثرها تغير المجتمع من مجتمع جاهلي إلى مجتمع إسلامي، وهي غير مطلوبة من الفرد، بل مطلوب منه العمل الدؤوب للنصر، وليس النصر بذاته، والذي قد لايتحقق على أيدينا، ولكن هذا لايعني أبدا التوقف عن العمل.

البنـــا ينبـه أتبـاعه

هكذا تنبه الامام البنا لمثل هذا المرض الذي يتسرب أحيانا إلى نفوس البعض فقال «أيها الاخوان المسلمون إنكم تبتغون وجه الله، وتحصيل مثوبته ورضوانه، وذلك مكفول لكم ما دمتم مخلصين. **ولم يكلفكم الله نتائج الأعمال، ولكن كلفكم صدق التوجه. وحسن الاستعداد.** ونحن بعد ذلك إما مخطئون فلنا أجر العاملين المجتهدين، وإما مصيبون فلنا أجر الفائزين المصيبين»(١٠٥)

---

* تنقسم الهداية إلى قسمين، هداية توفيق وهي بيد الله والأخرى هداية دلالة ويشترك فيها الناس مع الرسل، والمقصود القسم الأول.

(١٠٥) الرسائل ص ١٢٧ ـ المؤسسة الاسلامية.

سيد وأصحاب الأخدود

إن تأخر النتيجة، واستمرار البلاء يجب ألا يكونا سبباً في التوقف عن العمل، فلسنا نملك تحديد النتائج الفرعية والنتيجة الكبرى، وإنما أمر ذلك كله لصاحب الدعوة الذي وعد بإظهار هذا الدين على الدين كله ولو كره الكافرون يقول سيد معلقا على حادث الأخدود «لم يكن بد من هذا النموذج الذي لا ينجو فيه المؤمنون، ولايؤخذ فيه الكافرون! ذلك ليستقر في حس المؤمنين - أصحاب دعوة الله أنهم قد يدعون إلى نهاية كهذه النهاية في طريقهم إلى الله. وأن ليس لهم من الأمر شيء، إنما أمرهم وأمر العقيدة إلى الله! إن عليهم أن يؤدوا واجبهم، ثم يذهبوا. وواجبهم أن يختاروا الله، وأن يؤثروا العقيدة على الحياة، وأن يستعلوا بالايمان على الفتنة، وأن يصدقوا الله في العمل والنية. ثم يفعل الله بهم وبأعدائهم، كما يفعل بدعوته ودينه ما شاء. وينتهي بهم إلى نهاية من تلك النهايات التي عرفها تاريخ الايمان، أو إلى غيرها مما يعلمه هو ويراه. إنهم أجراء عند الله. أينما وحيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا، عملوا وقبضوا الأجر المعلوم! وليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة إلى أي مصير، فذلك شأن صاحب الأمر لا شأن الأجير!»(١٠٦).

من كانت بيده فسيلة

يقول رسول الله ﷺ «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها، فليفعل»(١٠٧).

الفسيلة هي شتلة النخل التي تحتاج حتى تنمو وتعطي الثمار إلى سنين وليست أياما، وفي هذا الحديث يدعو رسول الله ﷺ من كان بيده تلك

---

(١٠٦) معالم في الطريق ١٨١.

(١٠٧) رواه أحمد ١٩١/٣ وصححه الألباني ص ج ص ١٤٣٧.

الفسيلة وهو يعلم أن القيامة قد قامت وما يتبعها من تشققات في الأرض والسماء، وما يتبعها من تلاطم النجوم بعضها ببعض، وفيضان البحار على اليابسة واشتعال النيران فيها، ومع علمه لكل هذا فهو يأمره أن يغرسها، وهذا من أغرب الأمور التي تدل دلالة قاطعة بأنه ليس مطلوباً من العبد انتظار النتيجة بقدرما هو مطلوب منه العمل بما أمره سيده، يقول الأستاذ محمد قطب «إنه يقول لهم: ليس عليكم ثمرة الجهد، ولكن علبكم الجهد وحده، ابذلوه ولا تتطلعوا إلى نتائجه!.

ابذلوه بإيمان كامل، أن هذا واجبكم وهذه مهمتكم، وأن واجبكم ومهمتكم ينتهيان بكم هناك، عند غرس الفسيلة في الأرض لا في التقاط الثمار! وهو إذ يقول لهم ذلك لايغرر بهم ولايضحك عليهم! إنما يقول لهم الشيء الواحد الصواب! فحين تسأل نفسك: متى تثمر الفسيلة وكيف تثمر، وحولها الرياح والأعاصير والشر من كل جانب؟ وحين يصل بك التفكير إلى أن تطرح الفسيلة جانباً وتنفض منها يديك.. حينئذ كيف تثمر؟ وأنى لها أن تعيش؟

ألست قتلتها أنت حين أفلتها من يديك؟

ولكنك حين تغرسها في الأرض وترفع يديك لله بالدعاء.. حينئذ تكون أودعتها مكانها الحق، وعهدت بها إلى الحق الذي يرعاها ويرعاك»(١٠٨).

فما دام الداعية مستيقناً بالنصر، فليس من المهم أن يرى هو النصر مادام مستيقنا به، وإنما عليه أن يقوم بدوره الذي حدده الله، من الدعوة إلى الله، وبذل كل الأسباب التي تحرز النصر، وبعدها فليس مهما أن يتحقق النصر على يديه أو يد غيره.

---

(١٠٨) قبسات من الرسول، ٣٠، ٣١.

كيف ننتصر

* الخطوة الأولى التوكل على الله
* الخطوة الثانية إعداد العدة
* الخطوة الثالثة معرفة الجاهلية
* الخطوة الرابعة ترك الوهن
* الخطوة الخامسة الشعور بالعلو
* الخطوة السادسة الثبات

إن غرس صفة «الثقة بالنصر» في نفوس الدعاة، بتحديد معنى النصر، ومقوماته لاتغني عن معرفة «كيفيـة النصر» إذ أن الجهل بالخطوات المؤدية للنصر، وإن أحرز نصراً سريعاً، فإنه لايؤدي أبداً إلى الاستخلاف والتمكين وربما أدى إلى نتائج وخيمة يرجع ضررها على الدعوة والدعاة. فلا بد من معرفة هذه الخطوات والتي في مقدمتها التوكل على الله ثم إعداد العدة، وبذل الأسباب وبعد الانتهاء من البناء الداخلي، وقبل الالتحام مع الخصوم لا بد من معرفة دقيقة للجاهلية، فإذا ما رأينا البهرج والزينة والانتفاخ الضخم لبناء الجاهلية فلا يكون هذا سبباً في غرس الوهن المضعف للمسير والمجاهدة، بل يجب الاستشعار بالعلو، وإذا ما وقع البلاء بعد الاحتكاك فلا مناص من الثبات الذي يزلزل أركان الباطل ويحيله كالهباء المنثور.

عرف الشيخ محمد بن علان التوكل في كتابه «دليل الفالحين» بأنه «اعتمادك على مولاك ورجوعك إليه، وخروجك عن حولك وقوتك، وانطراحك بين يديه»(١٠٩).

أنـواع التوكـل

وجميع أنواع التوكل تنقسم إلى قسمين توكل في أمور الآخرة، وتوكل في أمور الدنيا، وخيرها ما كان للآخرة. ويوضح هذه الأقسام الامام ابن القيم فيقـول «فـأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في الايمان، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه. وفي محابه وتنفيذ أوامره. ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه، وحفظ حاله مع الله، فارغاً عن الناس، ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه. من رزق أو عافية، أو نصر على عدو، أو زوجة أو ولد، ونحو ذلك. فأفضل التوكل: التوكل في الواجب ـ أعني واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النفس ـ وأوسعه وأنفعه: التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية. أو في دفع مفسدة دينية، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض»(١١٠) والانتصار الذي نعنيه هو انتصار دين الله، وبالتالي فإن التوكل الذي نريده هو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، وهو الاعتماد والثقة بقدرة المولى عز وجل بالنصرة، وعدم الاعتماد فقط على بذل الأسباب، وإعداد العدة.

---

(١٠٩) دليل الفالحين ١/٢٥٦.

(١١٠) تهذيب مدارج السالكين ص ٣٣٦، ٣٣٧.

درس من الهجرة:

فالرسول ﷺ ما ترك سبباً من الأسباب التي تخطر على بال بشر إلا وقام به عند الهجرة.

فقد ترك عليا رضي الله عنه ينام في مكانه.
وأعد الراحلة واستأجر دليلاً يدله على الطريق.
واتجه جنوباً بدل أن يتجه شمالاً جهة المدينة تعمية على الأعداء.
وجعل عامر بن فهيرة يعفى بغنمه على الأثر.
واختبأ في غار ثور، وهو في أعلى جبل ثور، والوصول إليه شاق جداً.
وكلف ابن أبي بكر بجلب الأخبار من مكة.
وكلف ابنة أبي بكر - أسماء- بجلب الطعام لهما وهما في الغار.

ومع بذل كل هذه الأسباب فإن الأعداء وصلوا إلى فتحة الغار، ولولا إرادة الله لاقتحموه، الأمر الذي جعل الصديق رضي الله عنه يقول: «يارسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدمية لأبصرنا. فقال: ما ظنك يا أبابكر باثنين الله ثالثهما»[111] وهذا يدل على أن الرسول ﷺ لم يعتمد على الأسباب فحسب، بل كان معتمدا على الله منذ أول لحظة خرج بها من بيته بين صفوف المتحلقين على البيت، حتى في تلك اللحظات الحرجة في الغار، وهو لا يغيب عن باله التوكل على الله والثقة بنصره. ومن هنا نستنتج أن الحركة الاسلامية المعاصرة إذا ما أرادت أن تنتصر فيجب ألا تعتمد على تنظيمها وخططها وأفرادها وعدتها وتنسى الاعتماد على الله، فهي أول خطوة في الطريق المؤدية للنصر.

(١١١) متفق عليه - اللؤلؤ والمرجان - ١٥٤٠.

فالعدة جزء من الأسباب التي يجب أن نبذلها، والعدة لا تعني فقط السلاح، بل تعني أموراً أكثر من ذلك،وكذلك الأسباب لا تعني شيئا بذاته بل تعني بذل كل أمر يؤدي أو يساعد على النصر، ويكشف الامام البنا هذه الأسباب بقوله للمتعجلين للنصر، وهم لم يكملوا بعد بذل أسباب النصر **«وفي الوقت الذي يكون فيه منكم ـ معشر الاخوان المسلمين ـ ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسها روحياً بالايمان والعقيدة، وفكرياً بالعلم والثقافة، وجسمياً بالتدريب والرياضة، في هذا الوقت طالبوني بأن أخوض بكم لجج البحار، وأقتحم بكم عنان السماء، وأغزو بكم كل عنيد جبار، فإني فاعل إن شاء الله»**(١١٢).

قلة تغلب الكثرة

يقول تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾(١١٣).

القضية العددية وإن كانت مهمة، وهي جزء من إعداد العدة التي أمرنا الله ببذلها لتحقيق سنته في النصر، ولكنها ليست كل شيء، كما أنها ليست الأهم من بين الأسباب المعدة، خاصة إذا استنفذت فئة الحق كل ما لديها من طاقة، وبذلت كل ما أمرت به من أسباب، فما كان المسلمون في معظم حروبهم ذوي كثرة عددية بقدر ما لديهم من كثرة إيمانية قد اتصلت بصاحب الأسباب، مع بذلها لكل ماتستطيع من أسباب. فقد كانوا في بدر مايقارب الثلاثمائة بينما كان عدوهم يقارب الألف.

(١١٢) الرسائل ص ١٢٨ ـ ط ـ المؤسسة الاسلامية.
(١١٣) البقرة ٢٤٩.

وكانوا في أحد سبعمائة، وعدوهم ثلاثة آلاف.
وفي الخندق كانوا ثلاثة آلاف، وعدوهم عشرة آلاف.
وفي حروب الردة كانوا اثني عشر ألفاً، وعدوهم أربعين ألفاً.
وفي اليرموك كانوا أربعين ألفاً، بينما بلغ عدوهم مائتي وأربعين ألفاً.

وهكذا في معظم المعارك، تكون النسبة مابين ١ إلى ٣ أو ١ إلى ٦، وما كانوا يتعمدون تقليل عددهم، ولكن كان ذلك كل ما استطاعوا تجميعه آنذاك، فعوضهم الله بعدما بذلوا ما أمروا به من أسباب بالملائكة لتكمل النقص العددي، فقد قال الله تعالى في معركة بدر ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾(١١٤) فأصبح عددهم ألفا وثلاثمائة، ولم يترك هذه القلة مع تلك الكثرة بإمداد الملائكة فقط، بل أعطاهم الراحة الجسدية الضرورية للقتال، فقال في ذلك ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾(١١٥)، وزاد في نصرة الفئة القليلة على الكثيرة بأنه زلزل قلوب معسكر الباطل مع كثرتهم، وذلك بقوله ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾(١١٦) ثم يقللهم في عيون أعدائهم، ويقلل عدد أعدائهم في أعينهم، وهذا عامل نفسي مهم في الانتصار لايملكون الاعداد له لولا مؤازرة الله لهم، فيقول تعالى: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾(١١٧).

انتصار ظاهره هزيمة

وقد لا تكون الفئة المؤمنة القليلة هي المنتصرة دائماً، لذلك قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ ﴾ ولم يقل «كل فئة قليلة» كما حدث في معركة أحد،

---

(١١٤) الأنفال ٩.
(١١٥) الأنفال ١١.
(١١٦) الأنفال ١٢.
(١١٧) الأنفال ٤٤.

ومعركة مؤتة، ومن ثم لابد من وجود أسباب لهزيمة الفئة المؤمنة القليلة، وقد تكون القضية العددية هي أحد الأسباب، كما كان في معركة مؤتة، إذ كان عدد المسلمين نحو ثلاثة آلاف، بينما عدد الروم ومن تبعهم مائتي ألف، أي مايقارب ١ إلى ٦٦، وهذه بلا شك نسبة تفوق العقل البشري. ومع أهمية القضية العددية التي كان يدركها بعض الصحابة الذين اقترحوا إرسال كتاب للرسول ﷺ ليمدهم بالرجال، إلا أنهم بذات الوقت كانوا يعتقدون اعتقادا جازماً بأن النصر لايتعلق بالعدد، متى ما بذلوا كل ما بوسعهم من طاقة وسبب، لهذا قال لهم عبدالله بن رواحة، وكان أحد أمرائهم **«ياقوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة، فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة»**(١١٨) ومع هذه الكثرة في جيش العدو، إلا أن بعض الروايات لاتعد ما حدث في مؤتة هزيمة للمسلمين، بل تعده فتحا ونصراً. يقول الكاتب الاسلامي شوقي أبو خليل «لقد استطاع خالد بن الوليد تحقيق انسحاب مدروس منظم، مع حماية دقيقة لمؤخرة الجيش، وإلا لانقلب الانسحاب إلى هزيمة منكرة، وخسائر كبيرة، وكارثة محتملة. فالارتداد المأمون أصعب من النصر في بعض المآزق، لأن النصر ميسور مع اجتماع العدة، واحتمال الشدة فيه، ولكن الارتداد المأمون غير ميسور لكل من يريده وهو في أضعف الموقفين، إلا أن تكون له ـ القائد ـ خبرة القيادة تكافيء الرجحان في قوة العدو الذي يرتد بين يديه»(١١٩). وعلى هذا تصدق القاعدة **«بأن الفئة المؤمنة، إذا ما بذلت ما بوسعها من الأسباب فالنصر حليفها بإذن الله»** ولا تبقى المسألة العددية عائقا يحول دون النصر، وهذا ما استيقنه أتباع طالوت القلة، عندما

---

(١١٨) البداية والنهاية ٢٤٣/٤.

(١١٩) غزوة مؤتة ـ شوقي ـ ص ١١٢.

واجهوا عدوهم الذي يفوقهم بالعدد، فقالوا قولتهم «كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ» وكذلك قالها ابن رواحة وصحبه في مؤتة فنصرهم بإذنه.

يقول سيد رحمه الله: «فهذه هي القاعدة في حس الذين يوقنون أنهم ملاقو الله، القاعدة أن تكون الفئة المؤمنة قليلة لأنها هي التي ترتقي الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار. ولكنها تكون الغالبة لأنها تتصل بمصدر القوى، ولأنها تمثل القوة الغالبة. قوة الله الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، محطم الجبارين، ومخزي الظالمين وقاهر المتكبرين»(١٢٠).

النصر السريع

إذ بذل هذه الأسباب المتعددة مع ما فيها من عناء، وبذل الدعاة لكل ما لديهم من طاقة مع توكلهم على الله لهي من أكبر الأسباب المؤدية للنصر. إن النصر السريع الذي يريد البعض الحصول عليه دونما بذل للأسباب التي قد تطيل الطريق لا يمكن أن يبقى طويلاً إن حدث، لأنه مخالف لسنة الله، يقول سيد رحمه الله «والنصر السريع الذي لا يكلف عناء، والذي يتنزل هيناً ليناً على القاعدين المستريحين، يعطل تلك الطاقات عن الظهور، لأنه لايحفزها ولايدعوها وذلك فوق أن النصر السريع الهين اللين. سهل فقدانه وضياعه. أولاً لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات عزيزة. وثانياً لأن الذين نالوه لم تدرب قوأهم على الاحتفاظ به، ولم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه. فهي لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه»(١٢١).

---

(١٢٠) الظلال ١/٢٦٩.

(١٢١) الظلال ٤/٢٤٢٦.

لا يقول عاقل بأن قائداً من القواد، أو فئة من الفئات تستطيع الانتصار على خصمها دون معرفة دقيقة بنقاط الضعف ونقاط القوة لديه، ومالم يتعرف أصحاب الحق على الجاهلية معرفة دقيقة تجعلهم يعرفون من خلالها نقاط الضعف ونقاط القوة، فإنهم لن يستطيعوا مواجهتها.

ما هي الجاهليـة؟

فالجاهلية كما يصفها الاستاذ محمد قطب بأنها **«حالة نفسية ترفض الاهتداء بهدى الله، ووضع تنظيمي يرفض الحكم بما أنزل الله.. ثم تصيبها النتائج الحتمية لهذا الانحراف. نتائج تختلف باختلاف صورة الانحراف ومداه.. ولكنها تتفق في أنها اضطراب في حياة البشر، وشقاء، وقلقلة وتدمير وعذاب..»**

ومن ثم فهي ليست محصورة في الجاهلية العربية، ولا في فترة من الزمن معينة.. وإنما هي حالة يمكن أن توجد في أي وقت وفي أي مكان... كما توجد كذلك في أي «مستوى» من المعرفة و «الحضارة» والتقدم المادي والقيم الفكرية والسياسية والاجتماعية و «الانسانية».. إذا كانت هذه كلها لاتهتدي بالهدى الرباني، وتتبع أهواءها، وترفض أن تتبع ما أنزل الله.

وأن «الجاهلية» و «الهوى».. سيان.. فالذين يتبعون أهواءهم يرفضون أن يتبعوا ما أنزل الله.. وهم حينئذ في «الجاهلية» لهذا السبب عينه: لأنهم يرفضون هدى الله.. أيا كان مبلغهم من العلم البشري، ومبلغهم مما يسمى الحضارة والتقدم المادي، والتنظيم السياسي والاجتماعي والاقتصادي.. وهم

كذلك عرضة للنتائج الحتمية لهذه الجاهلية.. من اضطراب وشقاء، وتفتت وحرمان»[١٢٢].

معرفة سبيل المجرمين..

فالجاهلية عكس الهداية، فكل وضع لايهتدي بهدى الله فهو من الجاهلية، وكل مجتمع لايهتدي بهدى الله فهو مجتمع جاهلي، فكما أن أصحاب الحق عرفوا سبيل المؤمنين، فلا بد لهم من معرفة سبيل الطغاة والمجرمين، لكي يتقنوا تجنيب الناس الذين يلبس عليهم سبل الطغاة فيحسبوها سبل هداية، وليزيلوا الزينة التي غطى بها الباطل وجهه القبيح، فيظهر على حقيقته ليتجنبه العقلاء. وفي هذا يقول الإمام ابن القيم «**فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبانت لهم السبيلان كما يستبين للسالك الطريق الموصل إلى مقصوده، والطريق الموصل إلى الهلكة. فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس، وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة**، وبذلك برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة، فإنهم نشأوا في سبيل الضلال، والكفر والشرك والسبل الموصلة إلى الهلاك، وعرفوها مفصلة ثم جاءهم الرسول فأخرجهم من تلك الظلمات إلى سبيل الهدى وصراط الله المستقيم، فخرجوا من الظلمة الشديدة إلى النور التام. فإن الضد يظهر حسنه الضد، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها. **وأما من جاء بعد الصحابة، فمنهم من نشأ في الإسلام غير عالم تفضيل ضده، فالتبس عليه بعض تفاضيل سبيل المؤمنين بسبيل المجرمين، فإن اللبس إنما يقع إذا ضعف العلم بالسبيلين أو أحدهما كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه «إنما تنقض عرى الاسلام عروة عروة إذا نشأ في الاسلام من لم يعرف الجاهلية»** وهذا من كمال علم عمر رضي الله عنه، فإنه إذا لم يعرف

---

(١٢٢) جاهلية القرن العشرين ص ١١ - وهبه.

الجاهلية وحكمها، وهو كل ما خالف ما جاء به الرسول ﷺ فإنه من الجاهلية، فإنها منسوبة إلى الجهل، وكل ما خالف الرسول فهو من الجهل»(١٢٣) فلا بد أن يعرف أفراد الحركة الاسلامية النظام الاقتصادي الجاهلي، وما يسبب للعالم من ظلم وفقر واحتكار وحروب وأحقاد.

وأن يعرفوا النظام الاجتماعي الجاهلي الذي ساوى الرجل بالمرأة فامتهنها ووضع من قيمتها، وانتشرت الفاحشة بخروجها وتبرجها، وضاع الأطفال بغياب الأمهات، فخرجت أجيال من الشباب الذي لايعرف الله ولايريد أن يعرف الصلة بالله. ولابد أن يعرف النظام السياسي الجاهلي، الذي احتكم إلى تشريع البشر فجعل البشر هم الآلهة من دون الله.

ولابـد أن يعرفوا أن هؤلاء الطغاة الذين يحتكمون إلى الجاهلية في سياستهم واقتصادهم وعاداتهم وأخلاقهم لايريدون أن يعبد أحداً سواهم وأنهم سيقضون على كل من يحاول تغيير جاهليتهم وقوانينها، ولابد أن يعرفوا أن الطغاة قد وضعوا في سبيل الحفاظ على طاغوتهم كل الوسائل والخطط المدروسة للقضاء على كل فئة تحاول القضاء على جاهليتهم، فلابد أن يكونوا مدركين لهذه الخطط حذرين منها. وبهذه المعرفة التفصيلية بالجاهلية نكون قد بذلنا سبباً كبيراً من أسباب النصر بإذن الله.

---

(١٢٣) الفوائد ١٤٢، ١٤٣ ـ النفائس.

الوهن صفة من صفات الضعف، والضعيف لايمكن أن ينتصر حتى يزيل هذا الضعف، والوهن قد ينتج من كثرة الابتلاء، أو كثرة أعداد الباطل، وكثرة عدته، وقد ينتج من سقوط القادة أو قتلهم. والصبر هو المنقذ من تغلغل الوهن في نفوس الدعاة، ولا يقوى على الصبر إلا نوعية من الدعاة، هم الذين ينالون شرف رفع الراية، ويكتب الله النصر على أيديهم.

الربيون

يقول تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(١٢٤).

والربيون كما جاء في تفسير الطبري عن الحسن هم العلماء الفقهاء، وقال الامام الطبري مفسراً لقوله تعالى: ﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله﴾ «فما عجزوا لما نالهم من ألم الجراح الذي نالهم في سبيل الله، ولا لقتل من قتل منهم، عن حرب أعداء الله، ولا نكلوا عن جهادهم «وما ضعفوا» يقول: وما ضعفت قواهم لقتل نبيهم، «وما استكانوا» يعني وما ذلوا فيتخشعوا لعدوهم بالدخول في دينهم ومداهنتهم فيه خيفة منهم، ولكن مضوا قدما على بصائرهم ومنهاج نبيهم، صبراً على أمر الله، وأمر نبيهم، وطاعة لله واتباعاً لتنزيله ووحيه «والله يحب الصابرين» يقول: والله يحب هؤلاء وأمثالهم من الصابرين لأمره وطاعة رسوله في جهاد عدوه، لا من فشل ففر عن عدوه، ولا من انقلب على عقبيه فذل لعدوه لأن قتل نبيه أو مات، ولا من دخله وهن من عدوه، وضعف لفقد نبيه»(١٢٥).

(١٢٤) آل عمران ١٤٦.
(١٢٥) تفسير الطبري ٧/٢٦٩، ٢٧٠.

فالربيون أحبهم الله لأنهم فقهوا طبيعة الطريق الذي سلكه الأنبياء وأتباعهم من قبل، فلا بد من الابتلاء، ولا بد من صبر يقابل ذلك الابتلاء، صبر لا يعرف الوهن ولا الضعف ولا الاستكانة، فليست هذه من صفات السالكين لطريق الحق، بل هي صفات أولئك المتذبذبين، الشاكين بوعد الله والجاهلين لطبيعة هذا الطريق. وإلى هؤلاء كان سيد رحمه الله ينادي بلغة الأخوة . .

أخي هل تراك سئمت الكفاح وألقيت عن كاهليك السلاح
فمن للضحايا يواسي الجراح ويرفع رايتها من جديد(١٢٦)

نعم فمن لضحايا الظلم والطغيان غير الدعاة إلى الله يواسي جراحهم؟ ومن غيرهم يرفع الراية من جديد؟ فإذا سئم هؤلاء فماذا ينتظر ممن دونهم؟

يألمون كما تألمون

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾(١٢٧).

فلا بد للسالكين لهذا الطريق أن يعرفوا بأن الألم الذي يصيبهم بسبب البلاء الواقع عليهم، هو ذاته يقع على خصومهم من أصحاب الباطل، فكما أن أصحاب الحق يتألمون نفسياً وجسدياً فكذلك أصحاب الباطل يتألمون أضعاف أضعاف أصحاب الحق. ومتى ما أدرك أصحاب الحق هذه الحقيقة فلا ينبغي لهم أن يهنوا ويضعفوا لمواصلة الصراع، ويفتروا في منتصف الطريق. وعار على أصحاب الحق أن يتحمل أصحاب الباطل هذا الألم وهم لا يحتملوه مع فارق التوجه والغايات.

---

(١٢٦) شعراء الدعوة الاسلامية ٤/٤٤.
(١٢٧) النساء ١٠٤.

يقول الاستاذ سيد قطب «ولربما أتت على العصبة المؤمنة فترة لاتكون فيها في معركة مكشوفة متكافئة. . ولكن القاعدة لا تتغير . . فالباطل لايكون بعافية أبداً، حتى ولو كان غالباً! إنه يلاقي الآلام من داخله. من تناقضه الداخلي، ومن صراع بعضه مع بعض. ومن صراعه هو مع فطرة الأشياء وطبائع الأشياء. وسبيل العصبة المؤمنة حينئذ أن تحتمل ولا تنهار. وأن تعلم أنها إن كانت تألم، فإن عدوها كذلك يألم، والألم أنواع. والفرح ألوان. . «وترجون من الله مالا يرجـون». . وهذا هو العزاء العميق. . وهذا هو مفرق الطريق»(١٢٨).

الـلـه معكـم

يقول تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾(١٢٩).

كيف يهن قوم هم الأعلون عند الله بما عندهم من منهج الله؟

وكيف يهن قوم ويضعفون ويخافون، ويشكون بالنصر، ، ويتضعضعون الطريق، والقوة العظمى في جانبهم؟!

وكيف يهن قوم لا ينقص من أعمالهم شيء، وكل شيء مسجل لهم في كتبهم أضعافاً مضاعفة؟! إن على أفراد الحركة الإسلامية أن يعوا هذه القضية، فيرفضوا بعد ذلك المهادنة مع أهل الباطل. يقول علامة القصيم الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي معلقاً على الآية الكريمة «أي لاتضعفوا عن قتال عدوكم، ويستولي عليكم الخوف، بل اصبروا واثبتوا، ووطنوا أنفسكم على القتال والجلاد، طلباً لمرضاة ربكم، ونصحاً للإسلام، وإغضابا للشيطان (ولا تدعوا إلى السلم) والمتاركة بينكم وبين أعدائكم، طلباً للراحة.

(١٢٨) الظلال ٢/٧٥٠.
(١٢٩) محمد ٣٥.

والحـــال أنكم [أنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم] أي ينقصكم [أعمالكم] فهذه الأمور الثلاثة، كل منها مقتض للصبر، وعدم الوهن، كونهم الأعلين، أي قد توفرت لهم أسباب النصر، ووعدوا من الله بالوعد الصادق: فإن الانسان لايهن، إلا إذا كان أذل من غيره، وأضعف عدداً، أو عُددا وقوة داخلية وخارجية.

الثاني: أن الله معهم، فإنهم مؤمنون، والله مع المؤمنين، بالعون، والنصر، والتأييد. وذلك موجب لقوة قلوبهم، وإقدامهم على عدوهم.

الثالث: أن الله لاينقصهم من أعمالهم شيئا، بل سيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله»(١٣٠) ثم يقول «فإذا عرف الانسان أن الله تعالى لايضيع عمله وجهاده، أوجب له ذلك النشاط، وبذل الجهاد، فيما يترتب عليه الأجر والثواب. فكيف إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة؟ فإن ذلك يوجب النشاط التام»(١٣١).

---

(١٣٠) (١٣١) تفسير كلام المنان ٨٧/٧، ٨٨.

إن من أكبر المشاكل التي تعانيها الحركة الاسلامية، أن من أفرادها من لايعي بعد طبيعة المنهج الذي يحمله، ولا طبيعة الطريق التي يسلكها، ومن ثم فإنه إذا تعرض لأي فتنة مهما صغرت، يعود إلى تصوراته الجاهلية، تلك التصورات البشرية البعيدة كل البعد عن موازين الآخرة، إنه يجهل صفات القوة التي يركن إليها، ويتمسك فيها، ولهذه الفئة التي يتكرر تواجدها في فئة الحق في كل جيل، يوجه الحق هذا النداء، مذكراً بالقوة التي يملكونها ثم يغفلون عنها في حمأة البلاء المتساقط عليهم من كل صوب وحدب، فيقول لهم «وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ»(١٣٢) ويقول لهم «وَٱللَّهُ مَعَكُمْ»(١٣٣) ويقول لهم «وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ»(١٣٤).

يقول الأستاذ سيد قطب «أنتم الأعلون اعتقادا وتصوراً للحياة.

وأنتم الأعلون ارتباطاً وصلة بالعلي الأعلى.

وأنتم الأعلون منهجاً وهدفاً وغاية.

وأنتم الأعلون شعوراً وخلقاً وسلوكاً.

وأنتم الأعلون قوة ومكاناً ونصرة. فمعكم القوة الكبرى: «والله معكم» فلستم وحدكم. إنكم في صحبة العلي الجبار القادّر القهار. وهو لكم نصير حاضر معكم. يدافع عنكم. فما يكون أعداؤكم هؤلاء والله معكم؟ وكل ما تبذلون، وكل ما تفعلون، وكل ما يصيبكم من تضحيات محسوب لكم، لايضيع منه شيء عليكم: «ولن يتركم أعمالكم».. ولن يقطع منها شيئا لايصل إليكم أثره ونتيجته وجزاؤه. فعلام يهن ويضعف ويدعو إلى السلم، من يقرر الله سبحانه وتعالى له أنه الأعلى وأنه معه. وأنه لن يفقد شيئا من

---

(١٣٢) (١٣٣) (١٣٤) محمد ٣٥.

عمله. فهو مكرم منصور مأجور؟»[١٣٥] إن الشعور بالعلو والخيرية والارتقاء أمر رئيسي في الانتصار، وذلك لأن الشعور بالمهانة والذل والضعف والانحدار لا يسبب إلا الهزائم المتتالية لأن صاحب هذا الشعور لا يرى أنه مستحق للقيادة، من هنا تبرز أهمية الشعور بالاستعلاء لدى أصحاب الحركة الاسلامية، حتى يكون ذلك حافزاً للتحرك الدائب، الذي يقرب النصر إن شاء الله.

---

(١٣٥) الظلال ٦/٣٣٠٢.

وجعلها الإمام البنا من أركان البيعة وجاء ترتيبها بعد التضحية والطاعة، وكأن ذلك إشارة بأن التضحية والطاعة من المسببات الرئيسية للثبات، حيث أن التضحية كما يعرفها الامام البنا هي «بذل النفس والمال والوقت والحياة وكل شيء في سبيل الغاية»[١٣٦] وإذا ثبت لنا بأن جميع أنواع السقوط كانت بسبب من أسباب الدنيا فإن المضحي يظل ثابتا ويعصمه الله من السقوط لأنه قد باع كل ما يتعلق بالدنيا لله سبحانه وتعالى. والطاعة لون من ألوان الالتزام والذي يكون مؤشراً من مؤشرات الثبات في حياة الداعية.

والثبات كما يعرفه الامام البنا هو «أن يظل الأخ عاملاً مجاهداً في سبيل غايته، مهما بعدت المدة وتطاولت السنوات والأعوام، حتى يلقى الله على ذلك وقد فاز بإحدى الحسنيين، فإما الغاية وإما الشهادة في النهاية ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[١٣٧] [١٣٨].

أسباب السقوط

إن أخبار السقوط والساقطين لتكاد أن تخلع القلب من الخوف، خاصة إذا كان الساقط من القدوات والمتكلمين، ولكن الذي يسكن رجفة القلب ما ذكره بعض العلماء من أسباب للسقوط.

---

(١٣٦) مجموعة الرسائل ص ٣٦١ ـ المؤسسة الاسلامية.
(١٣٧) الأحزاب ٢٣.
(١٣٨) مجموعة الرسائل ص ٣٦٣ ـ المؤسسة الاسلامية.

ففي تعليقه على حديث «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار»(١٣٩) يقول الامام ابن القيم «لما كان العمل بآخره وخاتمته لم يصبر هذا العامل على عمله حتى يتم له، بل كان فيه آفة كامنة ونكتة خذل بها في آخر عمره فخانته تلك الآفة والداهية الباطنة في وقت الحاجة فرجع إلى موجبها وعملت عملها، ولو لم يكن هناك غش وآفة لم يقلب الله إيمانه»(١٤٠).

فبسبب وجود هذه الآفة الكامنة في الأعماق والتي ما كان يلحظها بسبب ما كان يغره ما عليه من مظاهر الصلاح كان السقوط، وقد تكون تلك الآفة الكامنة، حبه للرئاسة والبروز، أو إعجابه برأيه أو عدم سلامة صدره على الآخرين، أو لكبر يوجد فيه بسبب علم أو جاه أو منصب. وأخذت هذه الآفة تكبر يوماً بعد يوم حتى خرجت من الباطن وأصبحت ظاهرة عليه فصرعته فأصبح من الساقطين. والسقوط أنواع، فمنها ما يكون ابتعاد عن صف الدعاة، مع عدم تركه للواجبات الدينية مع بقاء حبه للجماعة ومحافظته على ما كان قد ائتمن عليه.

ومنها ما يكون ابتعاد عن الصف مع عدم تركه للواجبات، ولكن مع حقده على الجماعة والعمل ضدها بكل ما يملك.

ومنها ما يكون سقوطاً حقيقياً في الضلال، وهذا النوع لا يكون أبداً لمن استقام ظاهره وباطنه، بل لا بد لهذا النوع من وجود بلية باطنية استمرت بالنمو يوماً بعد يوم، مع غفلة عنها حتى سببت ذلك السقوط، لهذا ينقل الامام القرطبي عن أبي محمد عبدالحق قوله «إعلم أن سوء الخاتمة أعاذنا الله منها ـ لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سمع بهذا ولا علم به ـ

(١٣٩) البخاري ـ الفتح ٣٣٣٢.
(١٤٠) الفوائد ص ٢١٣ ـ النفائس.

والحمد لله - وإنما تكون لمن كان له فساد في العقل، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة»[١٤١].

نتـائج السـقوط

يقول الأستاذ فتحي يكن في كتابه القيم «المتساقطون على طريق الدعوة».

«وظاهرة التساقط هذه تسببت وتتسبب بكثير من الاساءات البالغة على الساحة الاسلامية، يكفينا أن نعرض هنا لبعضها..

- لقد تسببت هذه الظاهرة في أكثر الأحيان بهدر طاقات الحركة وأوقاتها في المعالجات التي قل أن تجدي نفعاً..

- وتسببت في إشاعة الفتن والتفسخ والتسمم في أجواء الحركة مما يعتبر عاملاً مساعداً على خسارة قريبي العهد بالإسلام وبالدعوة..

- وتسببت في كشف خبايا وأسرار ما كان لها أن تنكشف لولا أجواء الفتنة الضاغطة ووقوع الألسن والآذان في قبضة الشيطان.

- وتسببت بإضعاف الحركة، وبإغراء العدو بها، والاستعجال في ضربها وتصفيتها.

- وتسببت في بعد الناس عنها وزعزعة الثقة بها والتطاول عليها، مما يعطل دورها، وقد يوقف بالكلية سيرها »[١٤٢].

وإذا كانت هذه النتائج تعتبر بلا شك عوائق تعيق الحركة الاسلامية عن الوصول للنصر، أو على الأقل تؤخر النصر الذي سيتم، فإن الثبات هو عنصر أساسي في عملية النصر المؤزر بإذن الله.

---

(١٤١) التذكرة ٥٣/١.

(١٤٢) المتساقطون على طريق الدعوة ص ٦، ٧.

لنثبت على الطريق

يقول الأستاذ مصطفى مشهور «لنثبت يا أخي على طريق الدعوة، فلا تزل قدم بعد ثبوتها، ولنظل على الطريق لا نمل السير كل الوقت، وفي كل مكان، وتحت كل الظروف، ولو كان الواحد منا وحده في أقاصي الأرض، أو في أعماق السجون، مستشعرين معية الله، فهو نعم المولى ونعم النصير، لا تمل السير ياأخي ولو تباعدت أمام ناظريك تباشير النصر، أو ثمار أعمالك وجهادك. فالله سبحانه من رحمته بنا يحاسبنا على الأعمال والنيات، ولا يحاسبنا على النتائج»(١٤٣).

ويخطيء الطغاة حيث يظنون بأن البطش يطفيء الدعوة والدعاة، فلهذا يستخدمون أقسى أنواع التعذيب لثني الدعاة عما يدعون إليه، ولكنهم يفاجئوا بأن الدعاة بعد هذا التعذيب يزداد عزمهم، ويجددوا البيعة بالثبات على عهد الله، ويمثل هذا الشاعر جمال فوزي حيث يقول:

«برغم البطش والتنكيل قمنا ... نجدد بيعة مهما لقينا
ونعلنها وفي الآفاق أنا ... بعهد الله متنا أم حيينا»(١٤٤)

وفي وسط حلقات التعذيب سنة ١٩٥٤، ومن حجرة مظلمة في سجن القلعة صاح شاعرنا جمال فوزي مثبتاً إخوانه، وموضحاً لهم سنة الله في الدعاة إذ يقول:

«سنبذل روحنا في كل وقت ... لرفع الحق خفاقاً مبينا
فإن عشنا فقد عشنا لحق ... ندك به عروش المجرمينا
وإن متنا ففي جنات عدن ... لنلقى أخوة في السابقينا»(١٤٥)

---

(١٤٣) طريق الدعوة (١) ص ١٤٠.
(١٤٤) ديوان الصبر والثبات ص ٤٨.
(١٤٥) ديوان الصبر والثبات ص ١٠٧، ١٠٨.

وفي تحد واضح يثير أعصاب زبانية الطغاة، يصيح شاعرنا جمال فوزي فيهم وهو تحت سياطهم.

«فصبوا كيف شئتم من عذاب سجون الغدر أجمل ما لقينا
تعلمنا الثبات فهل أفقتم غدا سترون عقبى الظالمينا»(١٤٦)

فهذا وإن كان تحت التعذيب، يدرك أن لهذا البلاء خاتمة، وأن للطغاة نهاية قريبة.

ومن صيحة جمال فوزي إلى صرخة وليد الأعظمي في وجه الطغاة معلماً لهم أن التعذيب لن يزيده إلا ثباتاً، ولن يثنيه عن طريق الحق فيقول:

«وصرخت في وجه الطغاة مغاضباً كفوا عن التعذيب والايلام
والله لو قطعتم لحمي أذى وطحنتم قبل الممات عظامي
ما زغت عن هدى النبي محمد كلا ولا نافقت للحكام»(١٤٧)

إننا لا نتمنى الفتنة، ولكننا نسأل الله الثبات إذا جاءت، ونردد مع رسولنا ﷺ «يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»(١٤٨).

---

(١٤٦) ديوان الصبر والثبات ص ٥١.
(١٤٧) أغاني المعركة ٤٩، ٥٠.
(١٤٨) رواه الترمذي ـ وصححه الألباني ـ ص ج ص ٧٨٦٤.

أسباب تأخير النصر

* دفاع الله عن أوليائه حق
* سيد يذكر الأسباب

أسباب تأخير النصر

يقول تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾(١٤٩).

إن دفاع الله عن أوليائه حق، ووعد من الله، ولكنه شاء أن يكون هذا الدفاع بأسباب يبذلها أولياءه، من إعداد شامل لكل أسباب النصر، سواء المادية منها أو المعنوية، ومع قدرة الله على النصر بدون هذه الأسباب، إلا أنه شاء أن يربط النصر بمسبباته، وقد يعجل النصر أو يتأخر على قدر إحاطتنا أو عدم إحاطتنا لهذه الأسباب ، فهزيمة المسلمين فى أحد كانت بسبب معصيتهم لأوامر الرسول ص ، وهزيمتهم فى بداية حنين كانت بسبب اغترارهم بالكثرة ، كما أن هزيمتهم فى بلاط الشهداء كانت بسبب الغنائم التى انشلغوا بها عن مجابهة العدو ، فكما أن للنصر أسبابا ، كذلك للهزيمة أسباب .

يقول الأستاذ سيد قطب «والنصر قد يبطيء على الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله، فيكون هذا الابطاء لحكمة يريدها الله.

قد يبطيء النصر لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها، ولم يتم بعد تمامها، ولم تحشد بعد طاقاتها، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى

---

(١٤٩) الحج ٣٨-٤٠.

المذخور فيها من قوى واستعدادات. فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً! وقد يبطيء النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، وآخر ما تملكه من رصيد، فلا تستبقي عزيزاً ولا غالياً لا تبذله هيناً رخيصاً في سبيل الله.

وقد يبطيء النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر. إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله.

وقد يبطيء النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله، وهي تعاني وتتألم وتبذل، ولا تجد لها سنداً إلا الله، ولا متوجهاً إلا إليه وحده في الضراء.

وقد يبطيء النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها، وتضحياتها لله ولدعوته، فهي تقاتل لمغنم تحققه، أو تقاتل حمية لذاتها، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله.

كما قد يبطيء النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير، يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصاً، ويذهب وحده هالكاً، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار!.

وقد يبطيء النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً. فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده، وضرورة زواله، فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تتكشف لهم الحقيقة. فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عارياً للناس، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية!

وقد يبطيء النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة. فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر

لها معها قرار. فيظل الصراع قائماً حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر، ولاستبقائه!

من أجل هذا كله، ومن أجل غيره مما يعلمه الله، قد يبطيء النصر، فتتضاعف التضحيات، وتتضاعف الآلام. مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية: وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه، وتهيؤ الجو لاستقباله واستبقائه»(١٥٠).

وتصديقا لما ذكره الأستاذ سيد رحمه الله، فما زلنا نرى من المصلين من يصفق لرموز الطغاة في العصر الحديث ولا يقبل أبدا أن يمسهم أحد بكلمة سوء وما زلنا نرى جموعاً من رواد المساجد من يخاف من تطبيق الحدود، وما زلنا نرى مثل هذه الجموع وأكثر ممن يصدقون بأجهزة إعلام الطغاة بما يلصق ليل نهار بالحركة الاسلامية من اتهامات وأباطيل بريئون منها. وغيرها من الظواهر التي تؤكد حكمة الله بتأخير النصر. إلا أن أبرز مظهر وأكثرهم إيلاماً هو عدم تصافي الجماعات الاسلامية بعضها مع بعض، فما زال الكثير منها يطعن بالبعض الآخر، ويستحل غيبته والاساءة إليه بحجة تبيين الحق، بل وأكثر من ذلك فإننا نجد في الجماعة الواحدة الانقسامات التي تعمل ضد بعضها البعض، وتحقد بعضها على البعض الآخر، فكيف ننتظر نصراً سريعاً للاسلام، والحركة الاسلامية التي هي أمل الأمة بالإنقاذ تتجاذبها هذه التجزؤات، وتتبرأ من كثير من أخلاق الأخوة الاسلامية. أفينصر الله من تشتت قلوبهم بعد أن توحدت قلوب أعدائهم عليهم؟؟!

---

(١٥٠) في ظلال القرآن ٢٤٢٧/٤ ـ بتصرف.

متى يتم النصر

* العلامة الأولى - استنفاذ كل الطاقة المدخرة
* العلامة الثانية - بروز القلوب المتجردة
* العلامة الثالثة - الثبات عند المحنة المزلزلة

إن ساعة النصر غيب لايعلمه أحد، ولكننا نستدل على قربها كبشر ببعض العلامات، كما نستدل على قرب القيامة بعلاماتها الصغرى والكبرى، وبعض هذه العلامات نشارك نحن كبشر بصنعها مثل بذل الأسباب التي أمرنا الله ببذلها ليتحقق النصر، فإن تحققت هذه الأسباب بأرض الواقع كانت علامة من علامات قرب ساعة النصر، ولكن هناك علامات خارجة عن طاقة البشر، وأن الذي يصنعها ويهيئ لها هو الله وحده كلما يرى في الساحة من يستحق النصر ويقدر على مواصلة الدرب والثبات على حمل الراية. ومن خلال آيات القرآن الكريم يتبين لنا أن هناك ثلاثة علامات إذا تحققت نستطيع أن نستدل بها على ساعة النصر.

العلامة الأولى - استنفاذ كل الطاقة المدخرة

يقول تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾(١٥١).

واليأس هو آخر ما يصيب الرسل، بعد أن يبذلوا كل ما في طاقتهم من جهد ولا يجدوا لهذا الجهد نتيجة، بل يجدوا زيادة بالاصرار والعناد والمحاربة لكلمة الحق، وصبر الرسل يختلف تماماً عن غيرهم من البشر، فعندما ينفذ فإن ذلك يدل على شدة وضراوة المحنة التي يعيشها أولئك الرسل، فإذا كان الرسل الذين قد أعدهم الله إعداداً خاصاً للتحمل والصبر ييأسون فلنا أن نتصور ما كان عليه أتباعهم من الحالة النفسية، من الشدة وشبه

(١٥١) يوسف ١١٠.

الانهيار. وفي تلك اللحظات التي يبلغ فيها الكرب مداه، وتصل فيها حتى نفوس الرسل الصلبة إلى شبه النهاية، ويستنفذ الدعاة كل ما لديهم من طاقة، يأتي النصر لأصحاب الحق. يقول سيد رحمه الله «إنها صورة رهيبة، ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق في حياة الرسل، وهم يواجهون الكفر والعمى والإصرار والجحود. وتمر الأيام وهم يدعون فلا يستجيب لهم إلا قليل، وتكر الأعوام والباطل في قوته وكثرة أهله، والمؤمنون في عدتهم القليلة وقوتهم الضئيلة، إنها ساعات حرجة، والباطل ينتفش ويطغى ويبطش ويغدر.

والرسل ينتظرون الوعد فلا يتحقق لهم في هذه الأرض. فتهجس في خواطرهم الهواجس.. تراهم كُذِبوا؟ ترى نفوسهم كذبتهم في رجاء النصر في هذه الحياة الدنيا؟

في هذه اللحظة التي يستحكم فيها الكرب، ويأخذ فيها الضيق بمخانق الرسل، ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة.. في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسماً فاصلاً. «جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾».

«تلك سنة الله في الدعوات لا بد من الشدائد، ولا بد من الكروب، حتى لا تبقى بقية من جهد، ولا بقية من طاقة. ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس. يجيء النصر من عند الله، فينجو الذين يستحقون النجاة، ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين وينجون من البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون»(١٥٢).

تلك اللحظات التي يتحقق فيها معنى التوكل بأنصع صوره فيتجرد المؤمنون من الأسباب بعد أن بذلوها، ويتعلقون فقط برب الأسباب، تعلقاً لايجعل في قلوبهم ذرة من الالتفات إلى الأسباب، وهذا ما يؤدي لتكوين العلامة الثانية من علامات تحديد ساعة النصر.

---

(١٥٢) الظلال ٤/٢٠٣٥، ٢٠٣٦.

العلامة الثانية ـ بروز القلوب المتجردة

فما زالت الحركة الاسلامية تعاني من نقص كبير في تواجد مثل هذه القلوب، التي كانت تكثر أيام الرعيل الأول.

تلك القلوب المتجردة التي تقول «ما على هذا اتبعتك» فلا تنظر إلى متاع دنيوي طيلة مسيرتها في طريق الدعوة.

تلك القلوب المتجردة، التي لايهمها على لسان من تكون كلمة الحق ما دامت تقال. تلك القلوب المتجردة، التي لاتنظر إلى المنصب، ولا تتمناه.
تلك القلوب المتجردة، التي لايهمها أين تقف في طريق الدعوة في المؤخرة أم في المقدمة ما دامت ثابتة في الطريق تدعو إلى الله.

تلك القلوب المتجردة، التي لا تعرف الراحة ولا الملل والضجر، وتدعو كلما انغمست في أعمال الدعوة «اللهم أشغلنا بالحق ولا تشغلنا بالباطل».
تلك القلوب المتجردة التي لا تعرف وقتاً محدداً تعمل فيه للدعوة، وآخر لا تعمل فيه، بل جعلت كل لحظة في حياتها للدعوة، وكانت وقفاً على الدعوة.

تلك القلوب المتجردة ـ التي لا تعمل من أجل فلان وعلان، ولا من أجل جماعة، ولا من أجل عرض من أعراض الدنيا، إنما تعمل لإرضاء الله فحسب.

تلك القلوب المتجردة، التي تقدم عندما يحجم الآخرون وتثبت عندما يزل الآخرون، وتصبر عندما يجزع الآخرون، وتحلم عندما يحمق الآخرون، وتغفر عندما يخطيء بحقها الآخرون.

تلك القلوب المتجردة، التي لاتوجد فيها مساحة أو موضع إبرة من حقد على مسلم، تلك القلوب المتجردة التي لا تعرف الثأر لنفسها.

تلك القلوب المتجردة، التي لا تجد للنوم طعماً ألماً على ما يصيب الاسلام والمسلمين.

يقول سيد رحمه الله «لقد كان القرآن ينشيء قلوباً يعدها لحمل الأمانة، وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع - وهي تبذل كل شيء وتحتمل كل شيء - إلى شيء في هذه الأرض، ولا تنظر إلا إلى الآخرة، ولا ترجو إلا رضوان الله، قلوباً مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية حتى الموت. بلا جزاء في هذه الأرض قريب، ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة، وغلبة الإسلام، وظهور المسلمين، بل لو كان هذا الجزاء هو هلاك الظالمين بأخذهم أخذ عزيز مقتدر كما فعل بالمكذبين الأولين! حتى إذا وجدت هذه القلوب، التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض إلا أن تعطي بلا مقابل - أي مقابل - وأن تنتظر الآخرة وحدها موعداً للفصل بين الحق والباطل. حتى إذا وجدت هذه القلوب، وعلم الله منها صدق نيتها على ما بايعت وعاهدت، أتاها النصر في الأرض، وائتمنها عليه. لا لنفسها، ولكن لتقوم بأمانة المنهج الالهي وهي أهل لأداء الأمانة منذ كانت لم توعد بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه، ولم تتطلع إلى شيء من المغنم في الأرض تعطاه. وقد تجردت لله حقاً يوم كانت لا تعلم لها جزاء إلا رضاه»(١٥٣).

العلامة الثالثة - الثبات عند المحنة المزلزلة

لقد تكلمنا عن الثبات في موضع آخر، ولكن هذا الثبات الذي نحن بصدده هو ثبات من لون آخر، هو ثبات على محنة مزلزلة تجعل أشد الناس

(١٥٣) معالم في الطريق ١٨٣، ١٨٤ فصل - هذا هو الطريق -.

وأصبرهم وأتقاهم، وأشدهم صلة بالله، وهم الرسل وأتباعهم يستبطئون النصر من شدة هول المحنة ويقولون «متى نصر الله».

حيث يقول تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾(١٥٤).

يقول سيد رحمه الله «وإنها لتجربة عميقة جليلة مرهوبة.. إن هذا السؤال من الرسول والذين آمنوا معه. من الرسول الموصول بالله، والمؤمنين الذين آمنوا بالله. إن سؤالهم: «متى نصر الله؟» ليصور مدى المحنة التي تزلزل مثل هذه القلوب الموصولة. ولن تكون إلا محنة فوق الوصف، تلقى ظلالها على مثل هاتيك القلوب، فتبعث منها ذلك السؤال المكروب: «متى نصر الله؟».

وعندما تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة.. عندئذ تتم كلمة الله، ويجيء النصر من الله: ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾...

إنه مدخر لمن يستحقونه. ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية. الذين يثبتون على البأساء والضراء. الذين يصمدون للزلزلة. الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة. الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله، وعندما يشاء الله. وحتى حين تبلغ المحنة ذروتها، فهم يتطلعون فحسب إلى «نصر الله» لا إلى أي حل، ولا إلى أي نصر لا يجيء من عند الله. ولا نصر إلا من عند الله. بهذا يدخل المؤمنون الجنة مستحقين لها، جديرين بها، بعد الجهاد والامتحان، والصبر والثبات، والتجرد لله وحده، والشعور به وحده، وإغفال كل ما سواه، وكل من سواه»(١٥٥).

---

(١٥٤) البقرة ٢١٤.
(١٥٥) الظلال ٢١٨/١، ٢١٩.

هذه هي العلامات التي نستدل بها على قرب النصر، ولا يعني أنها هي العلامات الوحيدة التي تدل على قرب النصر، ولكنها هي البارزة بين العلامات، ولا نستطيع من خلال هذه العلامات أن نحدد وقتاً معيناً للنصر، بل ربما يؤخر الله النصر لحكمة لا نعلمها كبشر، وما علينا إلا أن نقوم بما أمرنا به من العمل ونكل النتائج وتحديد وقت النصر كله لله.

الخاتمة

يقول الدكتور عبدالودود شلبي:

«أذكر أنني ترددت كثيراً جدا على مركز من مراكز إعداد المبشرين في مدريد، وفي فناء المبني الواسع وضعوا لوحة كبيرة كتبوا عليها «أيها المبشر الشاب: نحن لا نعدك بوظيفة أو عمل أو سكن أو فراش وثير. إننا ننذرك بأنك لن تجد في عملك التبشيري إلا التعب والمرض. كل ما نقدمه إليك هو العلم والخبز وفراش خشن في كوخ فقير. أجرك كله ستجده عند الله إذا أدركك الموت وأنت في طريق المسيح كنت من السعداء»[أ].

هذا ما يقال لمن هم على الباطل، وليس لعملهم مهما كثر إلا النار، ومع هذا فإن مثل هذه الكلمات حركت المئات من المبشرين في أنحاء العالم من حملة شهادات الطب والجراحة والصيدلة وغيرها من التخصصات للذهاب إلى الصحاري القاحلة التي لا توجد فيها إلا الخيام، والمستنقعات المليئة بالنتن والمكروبات، والمكوث هناك السنين الطوال دون راتب، ودون منصب، ولو أراد أحدهم العمل بمؤهله لربح مئات الآلاف من الدولارات، ولكنه ضحى بكل هذا من أجل الباطل الذي يعتقد بصحته.

أيجوز بعد هذا أن يتذرع بعض من لم تسـر الدعوة في عروقه مسرى الـدم، وهو متكيء على أريكته بالحديث الضعيف «روحوا القلوب ساعة فساعة»[ب] متخذاً من هذا الحديث عذراً له للتخلف عن الركب، وللدنيا التي سكن إليها، ولدنو الهمة التي غرق فيها، ومنتقدا بذلك أصحاب «الحركة

(أ) في محكمة التاريخ ص ٨٠.

(ب) رواه أبو داود في «مراسيله» وضعفه الألباني «ض ج ص ٣١٤٠».

الدائبة» الذين لايلجؤون إلى الراحة حباً للراحة، ولكن لكي يجددوا الانطلاق وليواصلوا الحركة الدائبة، متبعين بذلك هدى نبيهم ﷺ عندما شك الصحابي الجليل حنظلة بنفسه أنه أصيب بالنفاق عندما أحس بتبدل استشعاره الايماني عندما يكون مع أهله وأولاده عنه عندما يكون مع رسول الله ﷺ، فقال له «ياحنظلة! ساعة وساعة» ثلاث مرات(ج) يقول الشيخ محمد ابن علان «ولكن ياحنظلة ساعة» أي لأداء العبودية، (وساعة) للقيام بما يحتاجه الانسان»(د) وعلى افتراض أن حديث «روحوا القلوب..» صحيح، فإنه لا يعني أبداً ما أراد به المتذرعون، دليلاً على توانيهم وكسلهم ودنو همتهم، وأن تكون الراحة هي الأصل، والعمل في سبيل الله هو الفرع، ويترك لفضول الأوقات. بل ينبغي أن يتطابق تماماً مع الحديث الصحيح الذي رواه مسلم السابق الذكر «فساعة وساعة» معناها كما يذكر الإمام المناوي «أي أريحوها» بعض الأوقات من مكابدة العبادات بمباح لا عقاب فيه ولا ثواب»(هـ).

وكان الصحابي الجليل أبو ذر يسمى هذا المباح «باطلاً» ويقول بعد أن وجهه الرسول ﷺ، لتركه لهذه الراحة الضرورية لتجدد الطاقة لمواصلة الطريق «إني لأجم فؤادي ببعض الباطل ـ أي اللهو الجائز ـ لأنشط للحق»(و).

وكما أن هذه الراحة ضرورية لمواصلة الحركة الدائبة، فإن الثقة بالنصر ضرورة أخرى لاستمرارية هذه الحركة، وبدونها يضعف المسير، ولابد أن تكون اللافتة التي يرفعونها وينظرون إليها دائماً وهم في مسيرتهم قوله تعالى ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾(ز).

فكيف يفتر مشي من يعتقد أن الأقوى معه، وأنه ناصره؟!

(جـ) جزء من الحديث الذي رواه مسلم (٢٧٥٠) كتاب التوبة.
(د) دليل الفالحين ١/٤٠٣.
(هـ) (و) فيض القدير ٤/٤٠.
(ز) سورة المجادلة ٢١.

الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٠٩٥/ ١٩٩١م

الرقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 15 - 0048 - 1

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة . ش . م . م
الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠
المكتبة : أمام كلية الطب ت : ٣٤٧٤٢٣ ص . ب : ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

دار الدعوة للنشر والتوزيع - الكويت
ص . ب : ٦٦٥٢٠ بيان - ت : ٢٦١٥٠٤٥
الرمز البريدى 43756